

محمد شفيق غربال

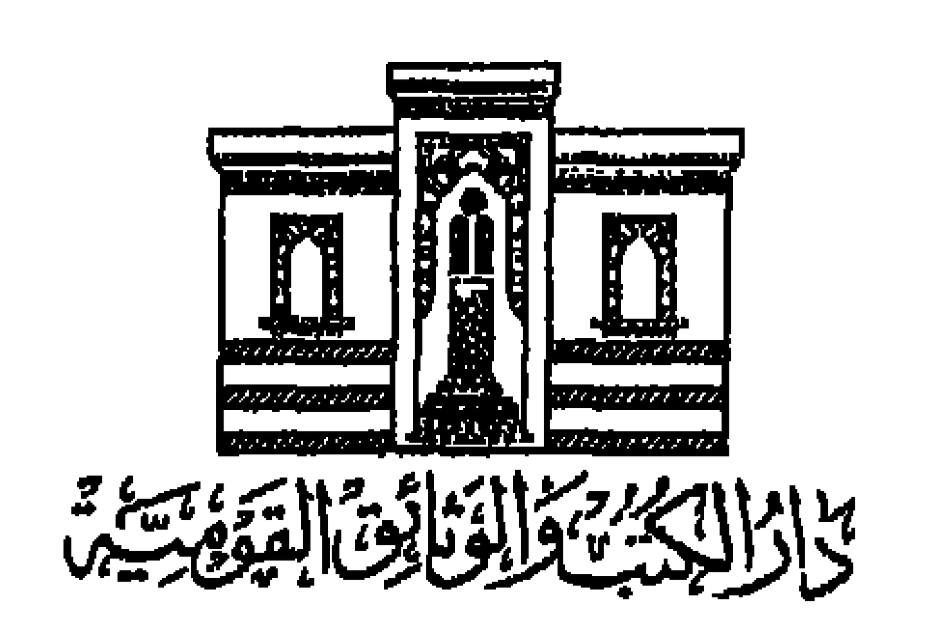
تكوين مصر

نقل إلى العربية بمعاونة

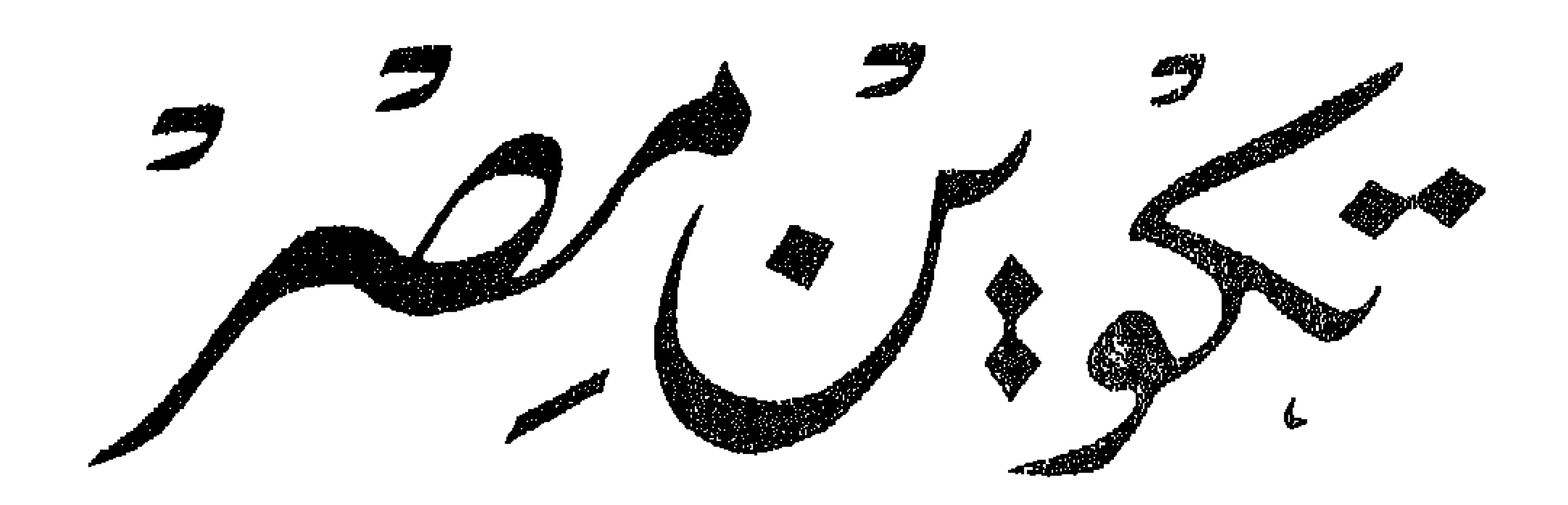
محمد رفعت

تقديم

د. محمد صابر عرب



محمد شفيق غربال



نقل إلى العربية بمعاونة

محمد رفعت

تقديم

د. محمد صابر عرب

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ.د. محمد صابر عرب

غربال، محمد شفيق.
تكوين مصر/ محمد شفيق غربال، نقل إلى العربية بمعاونة محمد رفعت ؛ تقديم محمد صابر عرب .-
القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، 2008 .
93ص ؛ 24 سم.
تدمك 9 - 0564 - 18 - 977
١ - مصر - تاريخ - والعصر الحديث.
أ - رفعت ، محمد (مترجم).
ب - عرب، محمد صابر (مقدم).
جـ - العنوان .

٩٦٢

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٨/١٣١٥٣
I.S.B.N. 977 - 18 - 0564 - 9

على سبيل التقديم..

د . محمد صابر عرب

يعتبر محمد شفيق غربال (١٨٩٤- ١٩٦١) المؤسس الحقيقي لمدرسة التاريخ المصري الحديث ، وقد ولد غربال بمدينة الإسكندرية ، حيث تلقى فيها تعليمه الابتدائي ثم الثانوي ، انتقل بعدها إلى القاهرة حيث تخرج من مدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٥ ، وقد أوفدته الحكومة المصرية إلى إنجلترا ليدرس التاريخ في جامعة ليفربول التي حصل منها على البكالوريوس عام ١٩١٩ .

عاد بعدها إلى مصر ليعمل مدرسًا للتاريخ في إحدى المدارس الثانوية بالإسكندرية لمدة ثلاث سنوات ، بعدها أوفدته الحكومة المصرية إلى إنجلترا ليدرس التاريخ في جامعة لندن ، حيث تعرف على المؤرخ البريطاني الشهير «أرنولد توينبى» ، الذى أشرف على رسالته للماجستير وكان موضوعها : «المسألة المصرية وظهور محمد على» .

وفي نهاية عام ١٩٢٤ عاد شفيق غربال إلى مصر ، وعين مدرسًا للتاريخ بمدرسة المعلمين العليا ، وفي عام ١٩٢٩ نقل إلى كلية الآداب بالجامعة المصرية ليعمل أستاذًا مساعدًا للتاريخ الحديث ، ما لبث أن رقي إلى كرسي الأستاذية عام ١٩٣٦ خلفًا للمؤرخ الإنجليزى «جرانت» ، وهو بذلك كان أول مصري يشغل هذا المنصب ، ثم انتخب عميدًا لكلية الآداب عام ١٩٣٩ .

ولما كانت السياسة وصراعات الأحزاب والقصر قد انتقلت إلى الجامعة ، لذا فقد نقل شفيق غربال من الجامعة إلى وزارة المعارف ، عاد بعدها إلى الجامعة عام ١٩٤٢ ، وبعد ثلاث سنوات عاد مرة أخرى إلى وزارة المعارف مستشارًا فنيًا ، ثم وكيلاً للوزارة حتى عام ١٩٤٩ ، حيث

نقل وكيلاً لوزارة الشئون الاجتماعية بجانب عمله كأستاذ غير متفرغ بكلية الآداب .

أعتقد أن شفيق غربال يمثل بحق بداية المدرسة المصرية للتاريخ ، كانت الكتابة التاريخية قبل ذلك أقرب إلى الأدب باعتباره أحد فنون الحكي والقصص ، لكن غربال بدراسته في إنجلترا وشغفه بدراسة التاريخ المصري قد عنى بطرق البحث العلمي الذي درسه على يد أستاذه «توينبى» ، خصوصًا وقد كان لديه ميل فطري نحو التفكير العلمي وقد تملك كل المقومات العلمية ، حيث قرأ كل المعارف المساعدة للمؤرخ في علوم : الاجتماع ، والاقتصاد ، والفلسفة ، والسياسة ، لذا قال عنه الدكتور منصور فهمي : «إنه يتمتع بذهن ذكي غني بشتى المعلومات ولديه قدرة هائلة على التركيز والتلخيص والتركيب والتحليل ، ولدية جنوح متميز للتعمق في الأشياء وقدرة هائلة على النقد» . وهكذا وضع شفيق غربال الأسس العلمية لبدايات ظهور مدرسة مصرية حقيقية متميزة جعلت التاريخ محورًا للدراسات الإنسانية قاطبة .

لقد ظهر غربال وسط كوكبة ثقافية وفكرية متميزة من أمثال طه حسين وأحمد لطفي السيد وهيكل ، وغيرهم ، وقد خاض بعضهم العمل السياسي والحزبي وانخرط البعض في مجال الكتابة الصحفية ونال البعض منهم قدرًا من النقد واللوم وخصوصًا ما جنح منهم نحو التفكير العلمي المجرد من أمثال طه حسين وقاسم أمين ، وانعكست السياسة على هذه النخبة ، وقد شعر البعض منهم بقدر من الإحباط حينما شعروا بأن ما يدعون إليه من حرية لا يجد صداه وسط الجماهير التي أطربها محترفوا السياسة وطلاب المصالح الخاصة .

لقد شعر غربال والكثيرون من أمثاله بالعزلة في مناخ لا يحكمه منطق أو عقل ، فها هي الجماهير تغريها البطولة منقادة وراء زعامات تجيد اللعب بمشاعر العوام إيمانًا بدور الفرد بدلاً من الجماعة وانزوى

البعض من دعاة الحرية وهم يرون الجماهير يخدعها الساسة والأثرياء فولوا وجوههم شطر الماضي يستخرجون منه ما ينعش ذاكرتهم .

وغربال وجيله قد شهدوا اندفاعة الجماهير المصرية إبان ثورة ١٩١٩ ، تلك الثورة العملاقة التي ألهمت العقاد روحًا جديدة ، كما ألهمت توفيق الحكيم في « عودة الروح» كما ألهمت سيد درويش الكثير من أعماله الشعبية ، هذه الروح كانت وراء الأعمال الكبيرة للمثال محمود مختار . ورغم كل ذلك فقد شهد كل هؤلاء نكسة الثورة وارتدادها حينما انقسم الزعماء لأسبابٍ لا علاقة لها بمصلحةِ الوطن مما حال دون أن تحقق الثورة كل أهدافها القومية والاجتماعية والسياسية .

ينتمى شفيق غربال إلى جيل لم يعرف التخصص بالمعنى الضيق ، وإنما كانت معارفه موسوعية ، قد يأخذ عليه البعض أن ما خلّفه من نتاج علمي لا يتناسب بأي حال مع ثقافته الواسعة وآراؤه العلمية الثاقبة ، وقد يكون لهذا الرأي قدر من الصواب ، لكن الرجل كان بحق مؤسس المدرسة الحقيقية للمؤرخين الجدد الذين ظهرت أعمالهم منذ حقبة الثلاثينات في القرن الماضي ، سواء من تتلمذ عليه مباشرة ؛ أو ممن تتلمذوا على تلاميذه ، فضلاً عما خلفه لنا من تراث -رغم قلته- لكنها القلة التى تفوق الكثرة ، فلم يكن اختياره مثلاً لكتاب المدينة الفاضلة لـ«كارل بيكر» لكى يترجمه أمرًا عارضًا ، ولم يكن اختياره لموضوع رسالته التي حصل بها على الماجستير من جامعة لندن تحت إشراف :

«رنولد توينبى» والتى نشرت بالإنجليزية عام ١٩٢٨ تحت عنوان :

The beginings of the Egyptian Question and the rise of Mohamed Ali

أمرًا عشوائيًا ، بل كان اختيارًا دقيقًا ، علميًا ، حينما جعل تاريخ مصر خلال الفترة الواقعة ما بين مجيء الحملة الفرنسية ١٧٩٨ وعقد

صلح بوخارست بين روسيا والدولة العثمانية ١٨١٢ موضوعًا لدراسته ، وقد أهدى غربال رسالته لتوينبي باعتباره -مدرسًا عظيمًا وأستاذًا ملهمًا- وقد قدم «توينبى» للرسالة بكلمة رائعة مؤكدًا أنه قد استفاد من تلميذه أكثر مما أفاد .

لعل هذه الدراسة الأولى لغربال قد وجهته إلى أهمية الاعتماد على الوثائق خصوصًا وثائق دار المحفوظات المصرية ، وقد وجه هو الآخر تلاميذه إلى ذلك . فضلاً عن دقة اختياره لبحوثه وبحوث تلاميذه . ففى عام ١٩٣٢ نشر بحثه الهام عن : «الجنرال يعقوب والفارس لسكاريس ومشروع استقلال مصر ١٨٠١م» .

وفى عام ١٩٣٦ نشر بحثه الآخر : «مصر عند مفترق الطرق- رسالة حسين أفندي الروزنامجى» وهذا البحث يعد نموذجًا للتحقيق العلمي الجاد ، حينما طرح مجموعة من الأسئلة التي وجهها مدير إدارة المالية «ستيف» فى عصر الحملة الفرنسية إلى حسين أفندي الروزنامجي . ثم نشر كتابًا آخر على درجة كبيرة من الأهمية تحت عنوان « محمد علي الكبير» عام ١٩٤٤، وهذا الكتاب الذي قال عنه أستاذنا المرحوم أحمد عبد الرحيم مصطفى : إن هذا الكتاب يعد قمة من قمم الدراسات التاريخية ، التي كتبت باللغة العربية على الإطلاق ، وربما كانت الأنموذج الوحيد للكتابة التاريخية .

وفى عام ١٩٥٢ نشر غربال الجزء الأول والأخير من كتابه« تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية» ، ثم يأتى هذا الكتاب : «تكوين مصر» الذى تشرف دار الكتب والوثائق القومية بإعادة نشره ، وهو في الأصل عبارة عن سلسة من المحاضرات التي ألقاها في الإذاعة الأوروبية ونشرت فى أصلها الإنجليزي ثم ترجمها الأستاذ المرحوم محمد رفعت عام ١٩٥٧ تحت عنوان : «تكوين مصر» وهذا الكتاب يعد نقلة هائلة فى فكر شفيق غربال فقد تبين للرجل بعد هذا العمر من التجارب والقراءات

أن الإسراف فى وضع قوانين ثابتة لتطور المجتمعات ، التى هى المادة الحية للتاريخ أمر لا يستقيم وحركة التاريخ مخالفًا رأى أستاذة « أرنولد توينبى» الذى يبنى دراسته للتاريخ على قوانين ثابتة تعتمد على فكرة التحدى والاستجابة .

لقد كان غربال على وعى كامل بحركة التاريخ فلم يشأ أن يخضعه لفلسفة بذاتها ، فهو يأخذ من كل تفسير بما يتناسب وطبيعة كل موضوع ، كما كان يتحرز من الغلوِّ في انتهاج فلسفات معينة فى تفسير التاريخ ، وكان متفقًا مع أستاذه «توينبى» في أهمية دور ما أسماه بالصفوة الخالقة التي تقود المجتمع ، وهى القضية التى كانت مجال نقض شديد ونقاش حاد عقب ظهور المدارس الاشتراكية التي تعظم من دور الجماهير على حساب النخبة .

أعتقد أن هذا الكتاب الصغير في حجمه العظيم في معناه يستحق إعادة القراءة والدراسة ، فإذا كان المرحوم «جمال حمدان» قد ترك لنا عمله الخالد (شخصية مصر) فإن المؤرخ العظيم محمد شفيق غربال قد سبقه إلى ذلك حينما وضع يده بدقة على مفاتيح الشخصية المصرية ، سواء من حيث المنهج الذي استخدمه أو من حيث الموضوعات التي تناولها في هذا الكتاب والتي تبدو فى ظاهرها أنها موضوعات مستقلة عن بعضها ، لكن القراءة الواعية لهذا الكتاب تؤكد أن الكتاب فى مجمله يعد موضوعًا واحدًا رغم تنوع العناوين الرئيسية .

هذا الكتاب يعد نموذجًا للكتابة العلمية الرصينة ، فضلاً عن الرسالة العلمية والوطنية التي يقولها الكتاب من بدايته إلى نهايته فخارًا ومجدًا لوطن كان كبيرًا وسيظل . .

د . محمد صابر عرب

الفهـــــرست

صفحة

مصر هبة المصريين ١
الاستمرار والتغير فى تاريخ مصر ١١
الحكومة والمجتمع فى مصر ٢١
الإنسان والمجتمع فى مصر ٣٣
المدينة والريف فى تاريخ مصر ٤٣
مصر والعهد القديم ٥١
مصر والهيلينية ٥٩
مصر والمسيحية ٦٩
مصر والإسلام ٧٧
مصر والغرب ٨٥

مصرهبة المصريين

هذا الحديث بداية سلسلة من الأحاديث ترمى إلى عرض متصل لتاريخ مصر خلال العصور الماضية ، وموضوعها تكوين مصر . وسوف نسلك إلى ذلك طريقين :

وسنحاول أول الأمر أن نعالج نواحي مختارة ، وموضوعات منتخبة ؛ مثال ذلك : التفاعل فى تاريخ مصر بين مبدأى الاستمرار والتغير . وعوامل التماسك الاجتماعى ، ومكان الفرد فى المجتمع ، وأوجه التباين بين المدينة والريف .

ثم نعود فنعالج الموضوع بطريقة أخرى . أى من ناحية دراسة اتصالات مصر بالمجتمعات الأخرى الكبيرة ، وكيف أثرت مصر فى عالم العهد القديم ، وفى الحضارة الهيلينية والمسيحية ثم الإسلام فالعالم الغربى ، وكيف تأثرت بكل هؤلاء .

وقد اتخذت عنواناً لحديثى الأول : « مصر هبة المصريين » . وليس مردّ ذلك إلى معارضة القول المشهور لأبى التاريخ — هيرودوت — حباً فى المعارضة ، ولكن لتوكيد الناحية

أو الزاوية التى سوف نعالج منها الموضوع . ذلك أننى أريد أن أؤكد عمليات الخلق والنمو والمحافظة التى نوجزها فى العنوان : « تكوين مصر » . كما أريد أن أؤكد أن هذا «التكوين» كان من صنع جماعة من الناس ، — المصريين — ومن ثم كان العنوان : « مصر هبة المصريين» . وأخيراً أريد أن أؤكد ما فى هذا النتاج ؛ نتاج هذا الخلق — مصر — من صفات الشخصية والرسوخ والانفراد بالذات . هذا النتاج الذى أثر بدوره فى تكوين المصريين . ولن تكون مصر التى نعنى بها مصر فى عصر معين ، بل خلال العصور كلها ، وهذا على الرغم من أننى أعرف أنه ليس فى مقدور الرجل منَّا أن يحيط بالأدوات والدراسات كافة ، اللازمة لكل قسم من أقسام تاريخ مصر المعروفة : ألا وهى العصر الفرعونى ثم اليونانى والرومانى فالإسلامى ثم العصر الحديث ، دع عنك الإحاطة بها جميعاً . بيد أن الإخصائى والقارئ غير الإخصائى كلاهما يجد متعة ذهنية ومغنما فى آن واحد لو حاد بين الفينة والفينة عن طريق التخصص ؛ الطريق الضيق ، واضعاً نصب عينيه أن هناك « مصر» دائماً ، وأنها تسمو فوق هامات الحقب والعصور .

ولكن هل هنالك حقًّا شيء كهذا ؟ هل هناك ما يبرر استخدامنا مدلولات : « مصر » و« الصين » وما إليها ؟ وهل استخدام تلك المدلولات لكى تمثل شيئاً ماديًّا أمر مشروع ؟ أو أن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد تسمية ، أو يكون من نسج الخيال ، أو الوهم ؟

ليس هنالك شيء من ذلك . إن مصر أرض شكلتها الطبيعة . وشكلها الإنسان شيئاً له ذاتيته وأهميته ، وهى وطن مجتمع من بنى الإنسان تربط بعضهم ببعض روابط مادّية وأدبية . إنها وطن مجتمع مغاير لمجتمعات بشرية أخرى .

ولنتناول الآن « المصريين» الذين قلت إن مصر كانت هبتهم .

لن ألقى بالاً للمسائل المتعلقة بأصلهم أو جنسهم ، ذلك لأنى أعنى بالمصرىّ كل رجل يصف نفسه بهذا الوصف ، ولا يحس بشيء ما يربطه بشعب آخر . ولا يعرف وطناً له غير هذا الوطن مهما كان أسلافه غرباء عن مصر فى واقع الأمر .

ومما هو جدير بالذكر أنه مهما تعدّدت الأصول فقد كان هناك طابع « مصرىّ » تشكل فى هذه البيئة المصرية ، ولست أعنى بالطابع السمات الجسمانية ، بل أعنى موقفاً معيناً من الحياة .

فلا يعنيني إذن أن أبحث فى بقعة ما من بقاع مصر عمن يسمونهم ذرارى قدماء المصريين . وبعض من يعنيهم هذا البحث يظنون أنهم يعثرون عليهم فى ريف مصر — على افتراض أن الريف كان أقلّ نواحى المجتمع المصرى تأثراً بالتغير والتبدل . أو لأن الريف كان الأرض المنعزلة التى يلجأ إليها القوم ابتغاء النجاة من الغزاة الأجانب . ولكن الحقيقة هى أن الريف كان على عكس ذلك تماماً ، فهو البقعة التى استوطن فيها مرتزقة المحاربين من الإغريق ، وكذلك رجال القبائل من العرب ، وبدو الصحراء ، وأن الريف — كما سأشير إليه فيما بعد — كان على الدوام المفترس للبشرية المصرية ؛ المفترس النهم الذى لا يشبع .

وآخرون ممن يعنيهم هذا البحث يظنون أنهم يجدون بغيتهم فى طائفة « أقباط » مصر . واحتمالُ وجودهم فى هؤلاء ، مثل احتمال وجودهم فى غيرهم .

وليكن المصريون الأوائل من يكونون ، وليكن تأثر سلالتهم بمن وفد على بلادهم ، واختلط بهم كثيراً أو قليلا ، فالذى يعنينا الآن أن نبين أن « مصر هبة المصريين » .

وإنى لأدرك تمام الإدراك — وهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك — أن النيل منبع حياتنا ، وأن مصر ما هى إلا الأراضى الواقعة على ضفتى النهر ، وأن ليس لها من حدود إلا المدى الذى تصل إليه مياه النهر .

ومع ذلك فإن المصريين هم الذين خلقوا مصر ؛ تأمل النيل مجتازاً آلاف الأميال من خط الاستواء إلى البحر الأبيض ، هل تجد على طول مجراه إلا مصراً واحدة ؟ إن هبات النيل كهبات الطبيعة سواء بسواء ، طائشة عمياء ، إذا ما تركت دون ضبط ، فإنها تدمر كل شيء ، وتخلف مستنقعات الملاريا الوبيلة .

والإنسان وحده هو الذى يستطيع أن يجعل من هذه الهبة نعمة لا نقمة . وقد كان ذلك ما عمله الإنسان فى مصر ، فمصر هبة المصريين .

كيف حدث ذلك ؟ إن الأستاذ « أرنولد توينبى » يتحدث

عن هذا فى معرض كلامه بما سماه « التحدى والاستجابة » ، وهذا موجز كلامه : إن هؤلاء المصريين الأوائل — شأنهم فى ذلك شأن بعض الشعوب الأخرى — واجهوا بعد نهاية عصر الجليد التحول الطبيعى العميق فى مناخ جزء من أفريقية وآسيا نحو الجفاف .

هذا هو التحدى . فماذا كانت الاستجابة ؟ من الأقوام الذين واجهوا التحول من لم ينتقل من مكانه ، ولم يغير من طرائق معيشته ، فلقى جزاء إخفاقه فى مواجهة تحدى الجفاف — الإبادة والزوال . ومنهم من تجنب ترك الموطن ولكنه استبدل طريقة معيشته بأخرى ، وتحولوا من صيادين إلى رعاة رحل ، عرفتهم المراعى الأفراسية . ومن هؤلاء من رحل نحو الشمال ، وكان لزاماً عليهم أن يواجهوا تحدى برد الشمال الموسمى ؛ ومن الأقوام من انتقل صوب الجنوب نحو المنطقة الاستوائية المطيرة . وهنالك أوهن قواهم جوّ تلك المنطقة المطير الجارى على وتيرة واحدة ؛ وأخيراً منهم أقوام استجابوا لتحدى الجفاف بتغيير موطنهم وتغيير طرائق معيشتهم معاً .

وكان هذا الفعل المزدوج ، الذى قلّ أن نجد له مثيلا ، هو العمل الإرادىّ الذى خلق مصر كما عرفها التاريخ .

هبط أولئك الروّاد الأبطال . بدافع الجرأة أو اليأس ، إلى مستنقعات قاع الوادى . وأخضعوا طيش الطبيعة لإرادتهم ، وحولوا المستنقعات إلى حقول تجرى فيها القنوات والجسور . وهكذا استخلصت أرض مصر من الأجمة التى خلقتها الطبيعة ؛ وبدأ المجتمع المصرى قصة مغامراته الخالدة لتستقيم له أمور دنياه وأمور أخراه .

ويظن العلماء أن المستنقعات التى تحكم فيها المصريون الأوائل هذا التحكم الحاسم كانت لا تختلف كثيراً عما هو قائم الآن فى منطقة السدود فى السودان . بل إن العلماء يظنون أن أسلاف القوم الذين يعيشون الآن فى تلك المنطقة كانوا يقطنون فيما مضى ما يعرف الآن بصحراء ليبيا ، جنباً إلى جنب مع مبدعى الحضارة المصرية ، عند ما استجاب هؤلاء لداعى الجفاف . واختاروا لأنفسهم أن يتخذوا خطة بالغة نهاية الخطورة . والظاهر أن المصريين حين فعلوا ذلك آثر جيران لهم اليسرى وولوا وجوههم نحو الجنوب ، نحو بيئة طبيعية تتفق والبيئة التى ألفوها ؛ والتى أصابها من التحول ما ألزمهم إما بمغادرتها وإما بتغيير أساليب حياتهم . وقد اختاروا مغادرة الموطن إلى موطن جديد ؛ يستطيعون فيه ممارسة شئون معاشهم

على الوجه الذى الفوه ، وتم لهم هذا فى المنطقه الحارة من السودان فى دائرة الأمطار الاستوائية . ولا يزال أحفادهم من الدنكة والشلوك وغيرهم يعيشون فيها حتى يومنا هذا ، كما كان يعيش آباؤهم الأولون . وقد أوضح الأستاذ « تشيلد » ما بين هؤلاء القوم المعاصرين وقدماء المصريين من شبه فى القوام والسمت ، ونسب أجزاء الرأس ، واللغة ، والملبس . ويضيف إلى ذلك قوله : ويبدو أن النمو الاجتماعى عند القبائل التى تقطن أعالى النيل وقف عند موضع تمكن المصريون من اجتيازه قبل بدء العصور التاريخية . ولدينا الآن فى أعالى النيل « متحف حى » يكمل أناسه آثار ما قبل التاريخ فى مجموعاتنا الأثرية فيحييها .

ولكن لا يزال علينا أن نسأل : لم اختلف مسلك المصريين الأوائل عن مسلك إخوانهم أسلاف الدنكة والشلوك ؟ وفى هذا المقام يتحدث الأستاذ « توينبى » عن نصيب « القلة الخالقة » فى نشأة المدنية . ويبدو أننا لا بد أن ننتهى إلى أن نعزو ما حدث إلى اقتران ظرفين : أحدهما : كون البيئة التى تحدت الإنسان لم تكن هينة لينة ، كما لم تكن قاسية مثبطة بل كانت بين بين . والآخر : اتفاق وجود الرجل أو الرجال

الموهوبين الذين يقودون شعبهم فى الساعة الملائمة إلى مغامرة كبرى من مغامرات الخلق والتكوين .

وليكن التفسير ما يكون ، فإن مصر ؛ مصر التى تشكلت على هذا النحو المفاجىء المثير ، قد سيطرت هى أيضاً على مصائر أبنائها ، واقتضتهم ثمن بقائها على الشكل الذى صنعوه .

هذا هو موضوعنا .

الاستمرار والتغيير فى تاريخ مصر

« إن التفاعل الحادث بين المبدأين المتقابلين — مبدإ الاستمرار ومبدإ التغير — يكوّن مادة التاريخ . فما يبدو فى التاريخ مستمراً لا يخلوا أبداً من تغيير خفىّ دقيق . وما من انقلاب مهما كان فجائيّاً ومهما كان عنيفاً استطاع أن يقطع تماماً صلة الاستمرار بين الماضى والحاضر » هذه فقرة مقتبسة من بحث للأستاذ « كار » فى تقدير صلة الثورة الروسية بالتاريخ الروسىّ .

وإنا لنجد تأييداً لما ذهب اليه الأستاذ « كار » فى بحثه هذا إذا ما ألقينا نظرة فاحصة سريعة على تفاعل هذين المبدأين فى تاريخ مصر .

والتغيرات التى سنعرض لها فى حديثنا الحالى كانت فى أغلب الأمر اجتماعية وثقافية ، وبما أننا سندرسها فى مجتمع معين — هو مصر — فلسنا فى حاجة إلى أن نُدخل فى نطاق البحث ما تصوره بعض فلاسفة العصور القديمة والوسطى والحديثة من أطوار كبرى مرّت فيها البشرية ، من قبيل تصوير « هسيود » لعصور الذهب والفضة والحديد ، أو ذاك

النسق الذى رسمه « أوجست كونت » لتقدم الجنس البشرى من طور إلى آخر . أو أكوار الكون والفساد المشهورة التى تخيلها المفكرون اليونان . تلك التصـــورات والتخيلات لها قيمتها من حيث كونها وسائل لترتيب الحقائق والظواهر فى شكل منظم . ولكنها لا تعين كثيراً على إيضاح المشكلات المتعلقة بمجتمع معين .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لن آخذ من الاستمرار والتحول مرادفاً لارتقاء المدنية أو السلطان وتدهورهما ، أو كما عبر « شبنجلر » بقوله : « مولد المدنية ثم نموها ، فنضوجها ، وأخيراً انحلالها فزوالها » . وقد سما الأستاذ « توينبي » بدراسته التغير ومظاهره إلى أرفع مراتب المجاهدة الروحية . ولكنه لا يقبل أن يكون ما سماه « دول العصبيات المحلية » مجالات صالحة لعمل المؤرخ . ولكن هل نستطيع حقاً أن نغفلها على هذا النحو السهل ؟ وبعد ، هل يوجد ماض يعتد به شعب من الشعوب سوى ماضيه ؛ ماضى وطنه ، ماضي عصبيته المحلية مهما كان شأنه ضئيلا بالنسبة إلى ماضى الإنسانية ، ومهما كان أفقه محدوداً ضيقاً ؟ .

أما عن منهجى فلا أرى بأساً فى ألا أستخدم مفتاحاً واحداً

ألح به عالم التغير فى التاريخ ، وإليك بعض ما قالوه فى هذا :

من ذلك ما لاحظ الأستاذ «سبروت» حديثاً عن اتجاه بعض المفكرين إلى اعتبار التقدم الإنسانى ظواهر حتمية لعملية باطنة ؛ عملية تتخذ طريقها وتسير فيه مستقلة عما يريده الناس ولو أنها تتأثر به . هذا بينما يربط الأستاذ «باريتو» ما بين التغير الاجتماعى والتغير فى نوع الصفوة التى تقود الجماعة . أما النظرية الماركسية فتبرز التغير فى أساليب الإنتاج وطرائقه ، والصراع بين الطبقات ، وما إلى ذلك .

ومن الخير أن نعرف ما ذهب إليه أولئك الاجتماعيون وغيرهم ، على أن ننهج منهجاً آخر لفهم التفاعل بين الاستمرار والتغير فى تاريخ مصر ، نهجاً يصح أن أسميه «ملازمة الوقائع» ، وهو يقوم على السعى إلى عزل أو فصل النواة الأساسية للثقافة المصرية ، ثم ملاحظة تأثر تلك النواة بما طرأ من مؤثرات فى الحياة المصرية ، ترتبت على وصل مصر طوعاً وكرهاً بالمدنيات والجماعات المتعاقبة غير المصرية . ودرجة هذا التأثر هى مقياس التفاعل بين الاستمرار والتغير .

ومن فوائد منهجى هذا أنه يتيح لنا استقامة النظر فى أمر الثقافة المصرية ، فقد كان القوم ينزعون إلى النظر إليها ،

كما لو كانت شيئاً انبعث كامل النمو انبعاث « مينرفا » من «رأس زفس». ولهذا النظر ما يبرره ، فإن الإغريق عندما اتصلوا أول الأمر بتلك الثقافة كانت قد شاخت ، واشتعل رأسها شيباً ، وفاض حكمة . فكيف يمكنهم أن يتصوروها أيام شبابها ؟ وبدت تلك الثقافة لبني إسرائيل واثقة بنفسها أكمل وثوق ، لا يتطرق إلى نظرتها لنفسها شيء من التشكك أو الحيرة ، ولما جاء علماء الآثار أو الحفارون — بمعنى أدق — إلى مصر ، في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان همهم العثور على الآثار المكتملة الصنع — آثار الخلق الفني — وقد عثروا عليها بالفعل . وأكد لهم ما عثروا عليه الصورة التي خلقتها كتابات الإغريق وبني إسرائيل .

طاف « ماريت » بالمسيو « رينان » في مناطق اكتشافاته في « سقارة » و « طيبة » ، وعبر لنا « المسيو رينان » عما تركته في نفسه آثار الحضارة المصرية بقوله : « إن مصر هي صين أخرى ولدت مكتملة النمو — وكأنما ولدت شيخاً هرماً ، وإنها كانت تتسم بسمات من الشيخوخة والطفولة معاً ، انعكستا على صفحة تاريخها وفي آثارها » .

ويضيف إلى ذلك قوله : « إنه لمن الطبيعى ، ومن الملائم أيضاً ، ألا يبقى الإنسان شاباً طول عمره ، ولكن ليس من الطبيعى ولا من الملائم ألا يمر الإنسان بمرحلة الشباب » .

وبعد ، فماذا تدل عليه آثار مصر ؟ تدل على أن لا ابتكار ولا شعراء ، ولا مؤرخين ، ولا ثورات ، ولا « سقراط » يتلقى عنه « اكسينوفون » ويتخذه « أفلاطون » مثلا أعلى ، ويسخر منه « أرستوفان » .

* * *

أبديت تلك الملاحظات عند ما كانت مصر تعد نفسها للارتباط بعجلة الأداة الأوروبية ، وهى — كما نعرف — عجلة سريعة الدوران . وربما كان للتباين الشديد بين سكون الشرق وحركة الغرب ما يزيد الشرق سكوناً ، والغرب حركة فى عين الناظر .

وهكذا يبدو الفلاح المصرى فى القرن التاسع عشر ، وكأنما يعيش كما كان يعيش أجداده فى عصر الأهرام ، وتبدو كذلك أسس الرخاء والحكومة الصالحة واحدة فى الماضى ، وفى الحاضر ، ورددت على الأفواه عبارات التوراة ، فالوزير الماهر هو « يوسف » آخر ، والإمعان فى الاستئثار

بما فى أيدى المصريين لم يفتر منذ أيام « فرعون » .

ثم بدأ طور جديد من أطوار البحث العلمى يُظهر إلى الوجود عالماً تختلف حقائقه كل الاختلاف عما كان مألوفاً معروفاً . فأظهر لنا الكشف عن عصر ما قبل التاريخ ، وعصر ما قبل الأسر المالكة — نشأة الحضارة المصرية وشبابها . كما كشفت لنا النقوش الدينية عن شقاق كامن فى جسم المجتمع وفى نفس الفرد ، وكان هذا عند ما نظروا فى تلك الكتابات بروح العطف وبصيرة الإنصاف . وإنا لنعرف الآن كيف طرأت على المجتمع الذى بناه قادة عصر الأهرام عوامل من الضغط . وأن هذه العوامل فعلت ما فعلت مصحوبة بمشاهد من العنف ، وكيف قام قادة آخرون ببناء صرح المجتمع المتداعى على أسس جديدة ، وبذا نصل إلى مجتمع الدولة المتوسطة . ثم أدى قدوم « الهكسوس » وطردهم فيما بعد إلى طور آخر من أطوار التاريخ . هو عصر الإمبراطورية .

وظاهر الأمر أن الإمبراطورية رأبت الصدع الملحوظ فى بناء المجتمع ، وحاولت أن تخلق جواً من الاطمئنان والثقة . ولكن هيهات ؟ . فلا يستطيع إنسان شاهد ، مثلا ، المناظر المنقوشة على جدران « قبر سيتى » أن يعتقد أن نفس الإنسان

فى ذاك العصر قد نعمت حقًّا بالهدوء والطمأنينة . ولو كان الجو حقًّا من الثقة واليقين بالدرجة التى أحبوا أن يتوهموها لما كانت ثورة « أخناتون » الدينية ، وفيها ما فيها من معانى المجاهدة الروحية والتجديد فى كل شىء .

وعند ما نصل إلى الأسرات الملكية الأخيرة نبدأ فنلاحظ وجود نواة متحجرة داخل إطار التاريخ ، ولعلنا نطلع على سر تحجرها إذا ميزنا بين عاملين أحدثاه :

أحدهما : نظام اجتماعى ثابت يقوم على ضبط النيل .

والآخر : إنسانية نمت فى جو مصرى خالص .

وفى هذه الأثناء كان العالم خارج النظام المصرى يتبدل على أيدى شعوب أخرى .

* * *

فماذا يكون حال النواة المصرية بإزاء المؤثرات المادية والأدبية الجديدة ؟

وقبل أن نحاول الإجابة على هذا السؤال يجب أن نلاحظ حقيقة طريفة ، هى أن ما لدينا من معلومات عن حال مصر وموقف مصر إنما مصدرها جانب واحد ، جانب أجنبى ، فإن الإغريق واليهود ، ومن إليهم من الغرباء ، هم الذين

(٢)

رووا عن المصريين ما رووا ، وهذا فى رأيى حقيقة يجدر بنا أن نضعها موضع الاعتبار ، وكانت الصورة التى رسموها صورة شعب متجهم عبوس عنيد محافظ ، يكره كل ما هو غريب عنه .

ولكن أكان هؤلاء الإغريق ، وهؤلاء اليهود حقاً أقل انطواء على أنفسهم ؟

لقد نظر الأقدمون جميعاً إلى كل شىء ، بعين العصبية القومية ، بل كان لكل قوم ربهم ، الذى لا هم له إلا رعايتهم وتدليلهم . وماذا كان فى استطاعة المصريين أن يفعلوه مع شعب الله المصطفى ! .

ترى كم من الناس مر فى خاطره ذلك الحلم الذى داعب خيال « الإسكندر الأكبر » وحدا به إلى رؤيا عالم روحه الوثام ، أو الإنسانية المنبثقة من أخوة بنى الإنسان ، وعلى كل حال فإن المصريين تعلقوا بالإسكندر وضموه إلى أنفسهم ، بيد أن خلفاء « الإسكندر » فى مصر لم يثرهم شىء من ذلك الحلم الجميل ، ولم يفعلوا شيئاً لكى تتفاعل الروح المصرية بالروح الهيلينية ، بل الأصح أنهم كرهوا هذا وعملوا ضده .

فلا نعجب إذن إذا وجدنا عهد البطالمة عهد تهجين ،

وعهد استغلال نافذ شامل ، وعهد كراهية ، وحرب بين الأجناس . ونصل على هذا النحو إلى حقبة من التاريخ ، لا تفيد الحكومة فيها إلا معنى واحداً هو كونها المالك الكبير . .

وخلّف الرومانُ البطالمة . وساروا بمنهج سابقيهم إلى أبعد مدى يستطيعونه ؛ فلا عجب أن صار المصريون أكثر تجهماً ، وأكثر عناداً وصلابة .

وجاءت المسيحية فخلصت الروح المصرية مما شابها من قتام وعبوس وصلابة . بيد أن اعتناق المصريين المسيحية ، ثم الإسلام بعد ذلك ، حدث فى عالم مصرى منشق على نفسه ، ولقد تحرر الإنسان حقًّا بفضل المسيحية والإسلام التحرر الحقيقى من رق الخرافة والعبودية لغير الخالق ، وتحرر الشعب من رق المقدونيين والرومان . ومع ذلك فإن الفرد المتحرر لم ينل الحرية التى تتيح له فرص اكتمال شخصيته ، فقد بقى التمييز والتفرقة ما بين الحاكم والمحكوم قائماً ، وحال ذلك دون تمتع الفرد بنصيبه الكامل من الجزاء والمسئولية . ولكن التحرر الذى أتى بفضل الديانتين الجديدتين — المسيحية والإسلام — كان تحرراً لا شك فيه ولا ريب ؛ فلنتأمل مثلا مصر المسيحية تخلق فنًّا جديداً ، وتقيم كنيسة

قومية ، وتصنع لنفسها أداة لغوية جديدة . ولنتأمل عمق حياتها الدينية وتنوعها ، ولكنها مع ذلك شقيت بالنزاع مع « بيزنطة » وقد كان هذا النزاع مبعث كثير من العـــداوة والجدب الفكرى ، والدمار الذى حل بالعصور البيزنطية المتأخرة .

وبدخول القوم فى الإسلام اتسع الأفق المصرى ، وامتدّ إلى محيط دار الإسلام . وما ثقافة مصر فى عهد الإسلام إلا الثقافة الإسلامية معدلة ، لتلائم ظروف مصر ، وهنا حدث فعلا تكافؤ بين الاستمرار وبين التغير . ولم نشهد رجحان كفة مبدأ التغير إلا عند استهلال القرن التاسع عشر وبدء الاتصال بالغرب .

وبعد ، فما ذا نقول بعد أن لازمنا نواة الحضارة المصرية خلال عصور التطور والتبدل المتعاقبة . نقول : إننا نستطيع أن نقدر مدى تأثر عقل المصرى وإرادته ؟ ولكن ؛ ما الحكم على رفيق العقل والإرادة المستقر فى أعماق النفس ؟

سؤال ليس له من مجيب .

الحكومة والمجتمع فى مصر

قد عرّف المجتمع بأنه : « نسيج من العلاقات الإنسانية المتداخلة أو المتفاعلة بعضها مع بعضها الآخر » . وعرفت الحكومة بأنها : « ممارسة السلطة من جانب صاحب السلطان ، ووكلائه أو مندوبيه ، لتنظيم تلك العلاقات أو التفاعلات فى مجتمع ما » . وهناك ارتباط وثيق بين أوضاع الحكم وأغراضه فى مجتمع معين ، وبين ما يعتنقه أعضاؤه من آراء ومعتقدات عن أصل مجتمعهم . فاذا اعتقد قوم ، مثلا ، أن مجتمعهم هو من صنع الآلهة ، عندئذ يكون للآلهة أو سلالة الآلهة السلطان الأعلى عليهم ، ويكون زمام الحكم فى أيديهم . تلك كانت عقيدة قدماء المصريين عن أصل مجتمعهم . وهكذا كان السلطان والحكم فى أيدى الملوك الآلهة ، وسادت فى مصر بعد اعتناق أهلها المسيحية مذاهب أخرى ، وتغيرت تبعاً لذلك مدلولات كلمتى المجتمع والحكومة .

ومنذ سنوات وضع الأستاذ « ديبواريشار » (من أساتذة كلية الحقوق بالجامعة المصرية) بحثاً ممتعاً ، مثيراً للتأمل ، فى

موضوع : « تطور الحكم وأصوله فى مصر . منـــذ أقدم عصورها » ونشره له المعهد المصرى . وقد فرق الأستاذ « ديبواريشار» بين أطوار ثلاثة :

أولها : ظهور حكومة الملوك الآلهة . سواء الفراعنة الأصليون أو خلفاؤهم البطالمة المقدونيون والقياصرة الرومان .

وثانيها : طور الحكومة . يسودها قانون مستمد من شريعة سماوية ، مسيحية كانت أو إسلامية .

وينتهى هذا الطور فى عصر الثورة الفرنسية .

أما الطور الثالث : أو الحالى فهو : طور الحكم على قواعد من وضع العقل البشرى .

وهذا التمييز مفيد ، وإن كان مما يحتمل الجدل أن مجتمعاً ما أو حكماً ما يخضع خضوعاً خالصاً للعقل وحده ، ويكون كل تصرف فيه مما يمكن وصفه بأنه تصرف معقول . فلنتبع بعد هذا التقديم أطوار المجتمع والحكومة على وجه الإجمال . ولنحاول أن نحذو حذو « أرسطاطاليس » فى منهجه التحليلى التسلسلى . ولعلكم تذكرون كيف بدأ بالمنزل ، وانتقل منه إلى القرية ثم المدينة .

والمدينة تتوج التسلسل ، وفيها وحدها يتاح للإنسان آخر

مجال لاكتمال طبيعته . فهى « طبيعية » بالنسبة إليه ، وهو مدنى بالطبع . وبينما المدينة وليدة مقتضيات الحياة ، فإن بقاءها مما تقتضيه الحياة الطيبة . هذا ، وإذا أوغلنا فى أقدم ما تمليه الحيطة من عصورنا التاريخية وراء تحديد نقطة البدء فى حياتنا المدنية وجدناها فى مواطن الجماعات المصرية الأولى التى أصبحت فيما بعد « كور » مصر فى الاصطلاح اليونانى ثم العربى المصرى ، أو مديرياتها — إلى حد ما — فى اصطلاحنا نحن المعاصرين . ويجب علينا أن نتذكر دائماً أن كل واحدة منها كانت موطن جماعة من الناس تربطهم بعضهم إلى بعض صلات نسب ، ومصالح ، وأنها بدأت واستمرت متميزة بعضها عن بعض ؛ عقيدة وموقعاً ومصالح . وأن مصر كانت ثمرة اتحادها فغلبت عليها بعد الاتحاد صفة كونها أقساماً إدارية فى مملكة .

وليس من اليسير علينا أن نقدر الآن أثر تحدُّر جماعات الكور الأولين من سلالة بشرية واحدة فى التقريب فيما بينها . والثابت : أنها تعرضت من حيث تكوينها الجنسى لمؤثرات مختلفة . فالمواطن التى تتاخم البادية — مثلا — أو التى تقع على خطوط المواصلات الكبرى أو قرب قلب أفريقية زاد اختلاط

أهلها — بعناصر بدوية أو أفريقية أو أسيوية أو غير ذلك — عن غيرها ، وهكذا . وفضلا عن ذلك كان لأنواع البيئات المصرية أثره فى إيجاد فروق كبيرة بين الجماعات ، فالدلتا غير الصعيد ، وما جاور البحيرات أو البحر أو الصحراء له أثره العميق ، بالإضافة إلى اختلاف عناصر المناخ ، ومزايا الموقع الجغرافى الحربية والتجارية وما إلى ذلك .

ومهما كان الأصل أو المنشأ أو الظروف فإن نصيب « الكور » فى تكوين المجتمع المصرى أمر بالغ غاية الأهمية ، بل إن اتحاد مصر لم يبطل تأثيرها العظيم . وآية ذلك التأثير أن انتقال الحكم من أسرة أو من مجموعة من الأسرات إلى مجموعة أخرى إن هو إلا توكيد متصل لاحتفاظ نواحى المملكة بعصبية محلية قوية تستند إلى أساس من التقاليد والواقع . وأن هذه العصبية المحلية تعمل إذا ما واتتها الظروف على أن يمتد نشاطها إلى المملكة بأسرها .

وقد تم تكوين الوحدة المصرية أو المجتمع المصرى عن طريق الفتح ، والمشهور أن الأمر استقر على تكوين مملكتين ، وانتهى باتحاد المملكتين أو الأرضين .

وكلمة « فتح » قد نسىء فهمها . فالغالب أن الفتح لم يعتمد

أن يكون حمل جماعة من الجماعات على أن تقبل ارتباطاً ظهرت مزاياه لها ولغيرها . ولا شك فى أنه بعد أن اتخذت الأقلية الخالقة ، التى أشرت إليها فى الحلقة الأولى تلك الخطوة الحاسمة — خطوة الاستجابة لتحدى الجفاف . بمغادرة المرتفعات الآخذة فى الجفاف والجدب ، والاستقرار فى مستنقعات الأحراش فى أسفل الوادى ، وتحويل تلك المستنقعات إلى النسق الذى نألفه ، من حقول مزروعة تشقها مجارى الرى والصرف ، لم يكن أمامها مناص من وضع النهر كله تحت إشراف موحَّد مركز . ويصح جداً أن تكون القوة هى التى استخدمت لبلوغ هذا ، ولكن القوة كانت بالنسبة إلى عملية التوحيد والاتحاد كلها أقل الوسائل المستخدمة أهمية .

وقد آمن المصريون بأن تكوين مصر على النحو الذى به تكونت ، وتوحيدها على النحو الذى به توحدت ؛ لأعظم من أن يكونا أثراً من آثار عبقرية فرد أو طائفة ، بل هما أجل قدراً من أن يتما إلا على أيدى الآلهة . فالآلهة هى التى عملت بالفعل ولم تكتف — كما يصح أن نتصور — بإلهام البشر أو هدايتهم . وما الملوك البشريون إلا سلالتهم .

ومما ينبغى ألاّ نغفل عنه ، أن وحدة مصر اتخذت مظهر

التركيب أو المزاوجة ، فالتاج تركيب من تاجين ، ومن الآلهة تتركب تراكيب ثنائية أو ثلاثية أو تساعية ، وما إلى ذلك . وهذا كله له دلالته ، وله أيضاً آفته . فإن ما تركب يجوز أن يتفرق ويتحلل ، فكان لابد من خلق أدوات تصون المجتمع . ومن أهمها إنشاء الخدمات العامة التي تدعو إلى العجب والإعجاب .

واختراع الكتابة ، ومحاولة بلوغ الوحدانية على نحو يجمع — في مهارة وحذق ، وفي سذاجة وطيبة أيضاً — بين الولاء المحلي والولاء القومي الدينيين .

وقد قارن « المسيو رينان » بأسلوب لا يخلو من الفكاهة ، حكومة مصر الفرعونية بحكم تمارسه أكاديمية العلوم السياسية والخلقية . والأصح أن نقول : إنها كانت حكومة الفنيين . والفنيون يكوّنون إذن أول طوائف مجتمعنا المصري .

ولكن يجب أن نلاحظ أن هؤلاء الفنيين لم يقتصروا على ممارسة فنون المادة ، بل مارسوا أيضاً فنون الروح — إن صح التعبير — وهم جميعاً كهنة . فلم يكن الكاهن رجل دين فقط بالمعنى الذي نعرفه ، بل كان كل ذي شأن كاهناً من نوع ما : من الملك إلى من هو أدنى . ولذا فإنّ لي أن أقسم المجتمع المصري

بين قلة من الحكام الكهنة الفنيين . ورعية تعمل فى الإنتاج ، كما أن لى أن أسمى حكم مصر بحكم الملك الإله ، يمارس حكمه بواسطة فنية .

ومما لا شك فيه أنه كان من الطبيعى أن يحاول أولئك الفنيون أن يتألهوا وأن يؤبدوا نفوذهم فى ذريتهم ، وأن يوصدوا الأبواب دون الدخلاء . إلا أن ثمة عاملين حالا دون ذلك .

أولهما : عامل الاختيار والفناء الطبيعيين ، وهو يحول دائماً دون إيصاد الأبواب فى وجه الدخلاء من الخارج .

والعامل الثانى : هو أن « فرعون » كان يعمل دائماً على أن يبقى هو وحده « منبع التشريعات كلها ، ومنبع الهبات كلها » . وعلى هذا الأساس كان جد حريص على أن يرفع حديثى النعمة — كما نقول اليوم — كلما أمكن له ذلك .

ومما هو جدير بالنظر أن هؤلاء الفنيين عملوا على أن لا يسمحوا لأنفسهم بحرية استخدام مواهبهم ، طبيعية كانت أو مكتسبة ، للتجديد أو الابتكار المطلق إلا فى فترات الثورات. كما لم يكن لهم أن يخرجوا عن ممارسة الوظائف المخصصة لهم وفقاً للقواعد « السائدة » .

هذا شأن القلة ، أما الرعية من المنتجين ؛ فخير ما نفعل لمعرفة شأنهم ، هوأن نتصورهم جماعات منظمة من الفلاحين والصناع يعملون فى ضياع التاج ، أو المعابد أو ما إلى ذلك .

وقد عنيت الحكومة أدق عناية بحاجاتهم الروحية فنظمت شئون العبادات العامة ، ووضعت القوانين الخلقية المستفيضة لكفالة حسن السلوك والسيرة القويم . ولم يترك لهم فى الواقع إلا متاع الحياة العائلية ، وكانوا فى فترات اليسر والرخاء راضين قانعين ، وأظن أن هذا كان كل ما هنالك .

ولقد كان فى وسع مجتمع مشيد على هذا النحو أن يشهد أيام عظمة ومجد ورخاء ؛ وأن يخلف ميراثاً من جليل الأعمال ، ولكنه كان فى معظم الأحايين ، كما لو ذاق الموت .

ولما اعتلى البطالمة والقياصرة الرومان عرش « فرعون » تفككت عرى المجتمع المصرى كما وصفناه ، فالمجتمع فى الظاهر هو هو ، وفى الباطن شىء آخر . فقد استقرّ الأغراب من الإغريق واليهود فى القرى والمدائن هنا وهناك ، ومارسوا شئون تجارة السلع وتجارة الفكر ، ومبادلتها مع البلدان الأخرى وفقاً لمبادئ غير مصرية . واستنزفت دماء الأهلين إلى آخر قطرة — وهــذا كله بالإضافة إلى عوامل أخرى جعل من المحال

استمرار النظام القديم ، وسلبت السلطة من يد الملك الإله ، أو من يد الإله القيصر الغائب عن البلاد ، ونشأ عهد إقطاع ، وتكونت الضياع الكبيرة ، وقويت نقابات أرباب الحرف ، وعلا شأنها فى المدن ، ولم يبق فى الأسر التليدة إلا أهل الريف . وهكذا ظل الريف يأكل ويهضم الغذاء الإنسانىّ الذى يقدم إليه ، ولا يشبع نهمه .

وجاءت المسيحية بشيرة بالخلاص ،بشيرة — على الأقل — برفع نير اليأس ، ودان لها الحاكمون البيزنطيون ، والمحكومون المصريون على السواء ، ولكن الفرج لم يأت بعد ، فالحكام أجانب ، وأجانب لا يستغلون الموارد فحسب ،ولكن يعملون أيضاً على فرض مذهب دينى معين ، ونظام كنسى معين على الرعية . وانتصر المصريون فاحتفظوا بشخصيتهم ، وشادوا بأنفسهم — ولأنفسهم فقط — صروح الفن واللغة والآداب والكنيسة . ولكن مجتمعهم انتقل من النظام الموحد الذى عرفه آباؤهم إلى مجتمع يقوم على الطوائف والهيئات : سكان القرى ، وسكان المدن والطبقة الوسطى ، والقساوسة والرهبان ،تربطهم جميعاً رابطة من الدين والتقاليد .

وفى سطوع نور الإسلام نصل إلى العصر الثانى من عصرى

الحكم ، الذى يسوده قانون مستمد من شريعـــة سماوية .
وقد ظل المجتمع قائماً على تنوع الطوائف والهيئات كما كان من قبل ، إلا أن ما بين تلك الطوائف والهيئات من فوارق وفواصل أوهنه وأضعفه إحساس قوى بالانتماء إلى « الأمة » ، الأمة الواحدة . وهو إحساس سرى حقاً فى كل فرد وفى كل جماعة . أما فى دائرة الحكم فقد كانت مصر الإسلامية ـ شأنها فى ذلك شأن غيرها من البلاد الإسلامية ـ تعترف بالحقيقة القائمة على التمييز بين الحكومة الشرعية حقاً وحكومة الواقع . وبهذا كانت تخضع عن طواعية إلى انتقال السلطة من أسرة حاكمة إلى أخرى أو من عصبية إلى أخرى . بيد أن الاعتراف بسيادة « الشريعة » كفل للعدالة وجوداً . كما أن الإحساس القوى الذى أشرنا إليه بالانتماء للأمة ، ويقظة الهيئة الدينية الشرعية أوجدا أداة عملية ناجزة لإحقاق الحق .

وبالإضافة إلى هذا كله كان للمجتمع الإسلامى أن يعتز بأنه هيأ لغير المسلمين مكاناً منه ، يتبوأونه عن حق ومشاركة جدية فى نواحى الحكم والاقتصاد والثقافة .

وأخيراً نصل إلى طور « الحكم وفقاً لأحكام العقل » وسنتناول ذلك فى الفصل الأخير الخاص بمصر والغرب ،

ونكتفي الآن بأن نذكر أن الظروف، التي أوجدت ذلك الطور من أطوار الحكم ، أدّت إلى الانتقاض على المجتمع الإسلامي كما ورثناه . وإلى محاولة بناء مجتمع مصري جديد عن طريق التجريب، وعن طريق الارتجال ، وأحياناً تحت حكم الأهواء . وهذا ما يجب أن يكون ، ما دمنا قد نصبنا العقل الإنساني على عرش السلطان .

الانسان والمجتمع في مصر

هل خلق الفرد من أجل الجماعة – أو خلقت الجماعة من أجل الفرد ؟ وهل الإنسان والنحل والنمل وسائر الهوام فى الحياة الاجتماعية سواء بسواء ، أو أن للإنسانية ، من حيث هى ، معنى أجل خطراً من إنسانية المواطن أو العامل فى الإنتاج ؟

إننا لو نظرنا إلى طبيعة الإنسان نظراً يحده أفق الحياة الدنيا وحدها لتحتم علينا أن نقول : إن كل معانى الوجود الإنسانى تحصرها دائرة التاريخ . وفى هذه الحالة لا يكون الفرد من بنى الإنسان إلا جزءاً من ذلك المجتمع الذى هو أحد أعضائه ؛ وفى هذه الحالة كذلك يكون الشىء الذى يهم هو النمو الاجتماعى للجماعات .

ولكننا لو نظرنا – من جهة أخرى – إلى طبيعة الإنسان ومصيره ، نظراً مركزاً فى حياته الآخرة وحدها لتعين علينا أن نقول : إن كل معانى الوجود الإنسانى تقع خارج دائرة التاريخ . وفى هذه الحالة يكون العالم بلا معنى وكله شر . وينحصر فى هذه الحالة كذلك سعى الإنسان فى حمل المجتمع

(٣)

كرهاً ، وفى الابتعاد عنه . وهكذا نجد المجتمع – حسب النظر الأول – يبتلع الفرد . إن صح هذا التعبير . وحسب النظر الثانى نجده عدوه اللدود . فالنظر الأول يغفل أن كل نفس إنسانية لها وجودها الذاتى ، أما النظر الآخر فيغفل أن الإنسان بحكم أنه كائن اجتماعى لا يستطيع أن يبلغ الكمال الروحى الذى يسمو إليه إلا بعدم الانطواء على نفسه فيخالط الساعين سعيه الروحى على أساس أن معرفة الله هى فى جوهرها مسعى اجتماعى .

هذا ولم يتأثر المصريون فى أدوار تاريخهم كثيراً بالنوع الأول من النظر فى طبيعة الإنسان ، ولكنهم – على العكس – غلب عليهم النوع الثانى من النظر . وذلك فى ظل وثنيتهم ومسيحيتهم وإسلامهم . فلا نعجب إذن إذا أدركنا أن العقيدة الدينية لم ترجح كفة الفرد كما كان ينبغى لها أن تفعل ، ولم ترفع عنه عبء ما أوجبه المجتمع عليه بحكم ضرورات لازمت المجتمع المصرى ملازمة تكاد تكون دائمة .

وهذه الضرورات التى سوف أتناولها الآن بالشرح أدت إلى نوعين من النتائج : الحط من قدر الفرد وإلزامه بألا يخرج عمله عن التكرار من جهة . وحصر السلطان فى قلة

متسلطة . كانت الجماعات تشقى وتكدح لتوفير وسائل الراحة والمتعة والرفاهية لها من جهة أخرى .

وترجع الضرورات التى أشرنا إليها إلى عوامل طبيعية معينة مستقرة فى أسس الحياة المصرية ، وهى عوامل تعمل بانتظام وتواصل عملها عاماً بعد عام دون تغيّر جوهرى فيها — أو على الأقل — دون تغير ملحوظ منذ فجر التاريخ على ما نعرفه ، ومداه قصير نسبيًّا . فتوالى الفصول واختلافها والحرارة والرطوبة ، واتجاه الرياح وسرعتها ، وفيضان النيل وانخفاضه ، كل هذه الظواهر الطبيعية تجرى فى نسق كامل منتظم الحركة ، كما أن ما يحدث من التغيرات يخضع أيضاً لنظام دورى رتيب . و إن بيئة هذا شأنها لا بد وأن يجرى كدح الإنسان وكده فيها على سنن منتظمة رتيبة ، إلا أنه لا بد لهذا الكد من أن يكون يكون ثابتاً متواصلا ، وأن يجرى على نهج نظام تصنعه سلطة عليا واحدة . إذ أن كل توقف فى الكد والجهد ، وكل توان فى اليقظة والانتباه ، وكل نزوة من نزوات الفرد ، يعقبها الدمار والكوارث . ويحق لنا إذن أن نقول : إن مصر التى بناها المصريون وشادوها تتقاضى من بناتها ثمن بقائها ، وتفرض عليهم نوع الحياة التى يحيونها . وقد بلغ من سيطرة مصر

على ساستها وقادة أمرها ، ورسمها لهم خطط إدارتها ، واستغلال مواردها . أننا نجد – إذا استعرضنا على سبيل المثال – أعمال أحد سلاطين المماليك أو الولاة الرومان ، هي هي أعمال أحد البطالمة نفسها ، لم تتغير إلا فى الأسماء والأعوام . لقد جعل مؤسسو مصر منها ضيعة . وكان من الضرورى من أجل استغلالها أن يخضعوا سكانها لحكم مطلق مركز ، فيجنون بذلك ثمرة تنظيمهم لموارد المياه وموارد التربة ، فلا تضيع من الماء قطرة ، ولا يبقى من الأرض شبر غير منزرع . ويمكن تلخيص مفتاح النظام كله فى المبادئ الآتية :

الصلة الوثيقة بين الإدارة العامة وبين الاستغلال الاقتصادى ، الأهمية القصوى لعمل الإدارة ، الإدارة يجب أن تكون منتظمة يقظة . وما تاريخ مصر إلا مصداق لهذه المبادئ . فلا نعرف بلداً يتأثر أهلوه بالحكم صالحاً أو فاسداً كما يتأثر أهل مصر . ولا نعرف بلداً يسرع إليه الخراب إذا ساءت إدارته كمصر . ولا نعرف بلداً تجرى فيه العوامل الاقتصادية نحو نتائجها المقدرة دون تمهل ، ودون انحراف كما هو الحال فى مصر . فتستطيع فى مصر أن تقدر ما يترتب على رفع ضريبة من ازدياد الإنتاج وازدياد قوة الشراء ، وتستطيع

فى مصر أن تحسب ما يساويه مال ينفق على مشروع من مشروعات الرى قطناً كان أو قصب سكر .

فمن الجلىّ إذن أن بيئة مصر الطبيعية والبشرية تنزع نحو إيجاد عاملين ، صالحين فى الإنتاج ، أكثر مما تنزع نحو إيجاد الثروات الفردية المتباينة . والمصرى فى التاريخ إنسان متعلق بقريته أو حقله أو الشارع أو الحىّ الذى يسكنه أشد تعلق ، قريته أو مدينته هى وطنه . يشقى فى عمله . ويشق عليه أن يتركه أو يهجره مهما ساءت حاله ، ومهما انتابه من كوارث الطبيعة . ولما كانت السنون فى مسالكها لا تأتى بجديد فلا معنى للتطلع إلى جديد . وإذا ما امتد البصر إلى ما وراء القرية فما الذى يراه : إما أن يرى قرية أخرى . ولا جديد فى ذلك ، وإما أن يرى الصحراء ، وما الصحراء إلا الجدب والموت ، وأهلها رجال نهب وقطع طريق . فلا عجب أن يوليها الفلاح دائماً ظهره ، ولم يؤثر عن ابن المدينة أنه هام بشىء اسمه الطبيعة ، والقروى والحضرى كلاهما عرف الأيام الحلوة والأيام المرة ، ولكنهما لم يتصورا وجود عصر ذهبى كان فيما مضى من الزمان ، ولا يريانه قطعاً فى حاضرهما ، وإن كانا يرجوانه من الله فى الآخرة جزاء ما صـــبرا .

ليس العصر الذهبي فى الغابر ، ولا فى الحاضر ، فالظاهر أن طيبات الدنيا كانت دائماً من نصيب القلة ، وكما قال الأستاذ توينبي : « خلال الخمسة أو الستة الآلاف من السنين الماضية استأثر قادة المدنيات المختلفة بثمرة كد الجماعات ، وحرموا عبيـــدهم حقهم فيها دون تردد أو وخز ضمير . كما نفعل بالنحل نسطو على خلاياه وعسله » .

والبلاء قديم قدم إنشاء مصر . فها هو ذا فرعون مصر — الملك الإله — يستعرض ما حوله ، ويرى أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان فيستهويه الخاطر المضلل . فيتوهم أنه هو — وهو وحده — خالق مصر . وفاته أنه لولا تعاون منظم من جانب فلاحيه . ولولا سهولة انقيادهم . لما كان فى وسعه أن يخلق شيئاً . فمارس السلطان وتصرف فيما أنتجه المجتمع بأسره كما لو كان ملكاً خاصاً له . لا يشاركه فيه أحد . ملكاً يخدم أهواءه ومسراته وتمجيده فى هذه الدينا ، وخلوده فى الآخرة ، فلا عجب أن نادى فى الملأ « أنا ربكم الأعلى » ولا عجب أن انحط شأن الفلاحين فلم يكونوا إلا أدوات إنتاج بشرية . وأخذ المجتمع المصرى القديم يتسم بالجمود ، والمحافظة على القديم والتقاليد كما يتسم بالعقم ؛ مما ناقض أتمّ

مناقضة ما اتصف به المجتمع نفسه عند مولده وفى صباه من صفات الابتكار والإقدام فى لحظة من لحظات البطولة .

وفى أدوار التاريخ المتتالية قد يسمو مستوى الإدارة وقد يهبط ، ويعم الرخاء أو البؤس ، ولكن يبقى ما بين الحاكم والمحكوم على ما هو عليه . كان الذى بينهما على أسوأ أحواله أيام الرومان ، عند ما كان الزمام الوحيد الذى يكبح شراهة الحكام وسطوهم على ما فى أيدى الناس هو خوفهم من أن البقرة الحلوب قد يجف لبنها تماماً .

ثم نصل إلى العصرين المسيحى والإسلامى من تاريخ مصر وهنا ننظر ، ألا يحق لنا أن نتوقع تحولا أساسياً فى العلاقات الكائنة بين الإنسان وبين المجتمع ؟ ألم تعلن هاتان الديانتان أن الإنسان خلقه الله ، وأن لكل مخلوق ، ولكل انسان ، ولكل فرد ذاتية يستمدها من الله ، ولا يجوز لمجتمع ما ، ولا لسلطان ما ، أن يدعى أن له أن يمنحها أو أن يستردها ، وأن على الإنسان أن يكسب رزقه ، وأن يكمل أدبه وأن يعبد ربه . وهذه شئون شخصية قبل أن تكون اجتماعية . ولكن ، والحق يقال ، لم يتأثر مركز الفرد فى المجتمع باعتناقه تلك المبادئ الكبرى للحد الذى يحق لنا أن نتوقعه ، ويرجع هذا إلى أسباب :

يرجع أولا إلى أن القائمين بأمور الدين كانوا يرون أن نزوع الطبيعة البشرية نحو الشر يقتضى الكبح ، وأنه مادام الشر عنصراً من عناصر الطبيعة البشرية فإن هناك مجالا لسيف قيصر أو لدرة عمر . ويرجع ثانياً ، إلى أن القائمين بأمر الدين كانوا يؤمنون بأن المجتمع لا يمكن أن يقوم إلا على ترتيب الناس مراتب ودرجات .

كانوا يؤمنون مخلصين بالمساواة بين أفراد البشر ، ولكن هذا الإيمان لم يقتض فى نظرهم العمل على إيجاد تكافؤ الفرص بين الأفراد ، والشيء الثابت هو تفاوت الأفراد فى مواهبهم . ولا يضير المساواة الحقيقية أو ينقصها تفاوتهم فى الأرزاق . ويسرى فى التفكير الإسلامى ، قولا وعملا ، التمييز الواضح بين العامة والخاصة . على أن ما يحق للتفكير الإسلامى الفخر به قولا وعملا هو أن هذا التمييز لم يقم على أساس الحسب أو السلالة البشرية أو الغنى . ولكنه كان حقيقة واقعة . وكان له أثره بالإضافة إلى عوامل أخرى فى تنظيم المجتمع الإسلامى فى مصر على أساس الوظيفة الاجتماعية المخصصة للفرد ، والوظيفة الاجتماعية هى التى تعين حقوقه . فللفرد المسلم صفتان : صفته إنساناً مسلما ، وصفته فلاحاً أو صانعاً أو طالب علم أو كاتباً أو جندياً ...الخ . فالحقوق

عامة وخاصة ، والواجبات عامة وخاصة ، وقد تطغى الواجبات على الحقوق فتمحوها عمليًّا أو تكاد .

إن النظرية الإسلامية لتقرر أن الحكم ينبغى أن يكون فى يد أصلح الناس له ، ولكن الواقع يوجب فى الوقت نفسه أن يكون فى يد من يملك وسائل فرض الطاعة على الرعية . ومما يؤسف له أن امتلاك الوسائل أصبح فى النهاية المبرر الوحيد لممارسة السلطان .

هذا هو تراث الماضى ، وقد أثر ما حدث من التغييرات خلال القرن التاسع عشر فى ذلك التراث على أربعة أوجه :

(١) اتخاذ الإنسانية المطلقة أساساً للحقوق .

(٢) تغليب صفة المواطن على صفة الفرد . فلاحاً أو صانعاً ، أو ما إلى ذلك .

(٣) التطلع إلى الخير عن طريق التغييرات الاجتماعية والاقتصادية .

(٤) الإيمان بما تستطيع أن تحدثه الأنظمة المختلفة .

والواضح من هذا السرد أننا نركز النظر فى مجتمع جديد ، وأن عنايتنا بتكوين فرد جديد لا تعدو أن تكون وسيلة لإيجاد المجتمع الجديد المثالى ، وهذا ما نستطيع أن نقوله عن الفرد والمجتمع فى عصرنا الحاضر .

المدينة والريف فى تاريخ مصر

ظلت حضارة مصر حضارة مجتمع ريفى خلال آلاف السنين من تاريخها . حقاً كان لمصر مراكز حضرية ، وكانت لهذه المراكز مكانتها فى حياة البلاد القومية ، إلا أن الحضارة مع ذلك كانت هى حضارة الريف وسكان الريف .

وإنا لنتساءل الآن كيف كان طراز تلك الوحدات الحضارية فى مصر القديمة . كان هناك « بنادر » (الأقاليم اليوم) ولكنها كانت فى الحقيقة قرى كبيرة ، وإن قامت بما تقوم به المدينة ، إذ كانت مراكز الإدارة المحلية ، والعبادات المحلية ؛ وفيها كان يعقد السوق والمواسم . كما كانت هناك قواعد المملكة ، وكانت النزعة الغالبة جعل قاعدة البلاد أو العاصمة فى إقليم منف ، أى حيث تلتقى الدلتا بالوادى ، وفوائد ذلك واضحة جلية . إلا أن مؤسسى الإمبراطورية الجديدة قاوموا إغراء الاتجاه نحو الشمال ، واتخذوا طيبة قاعدة ملكهم القومى والإمبراطورى . وكانت هناك أيضاً مدينة الجامعة الشهيرة — أو بمعنى أدق — المدينة الكهنوتية ، « أون أو عين شمس » ، كما كانت هناك المدينة التى أسسها أخناتون « مدينة

أخيتاتون » لتكون مركز العقيدة التي فرضها ، إلا أن هذه لم يقدر لها أن تعمر طويلا . وما تبقى منها من آثار فى « تل العمارنة » يدلنا على وجهة نظر المصريين فى فن تخطيط المدن . وأخيراً أمامنا طراز من المنشآت . يهمنا أمره عند دراسة التطورات الآتية بعد ، نعنى بذلك مدن المعسكرات المقامة عند الحدود ، مثال ذلك « دافنى » فى شرق الدلتا ، و« ماريا » فى غربها « والفانتين» (أو جزيرة الفيلة) جنوباً ،و«نوقراطس» الواقعة فى الدلتا ، وإن كانت على اتصال ملاحىّ بالبحر الأبيض المتوسط . وقد أتاحت تلك المعسكرات لفراعنة مصر أن يُسكنوا العصابات الحربية المتبربرة ، كالليبيين مثلا ، أو الإغريق . أو اليهود : ممن كانوا يجندون ، وكان لزاماً عليهم أن يوجدوا مواطن لهم ، لا بوصفهم جنوداً فحسب ، بل بوصفهم جاليات أجنبية تقيم فى مصر دون أن تكون من مصر . وكان أهم تلك الجاليات شأناً اليهود والإغريق وسنشرح هذا الجانب من تاريخ مصر بعد، بشىء من الإسهاب ، إلا أن الثقافة المصرية الكبرى كانت تستقى مادتها دائماً من ينبوع الطبيعة الريفية لا من الحياة الحضارية . فأصول الثقافة إنما غذاها التأمل فى مظاهر الحياة والموت والنشور ، وإن وهن

المدينة المصرية المادىّ ليصور لنا وهنا المعنوىّ أدق تصوير .

هذا ولما آذن العصر الفرعونى بالزوال بدأت فصول جديدة من التاريخ ؛ كان للمدينة فيها المقام الأول ، وكان الإسكندر الأكبر هو أول من أزاح الستار عن ذلك الفصل الجديد من فصول التاريخ . ويوصف ذلك الفصل الجديد إجمالا بأنه حضارة جديدة تكونت من عناصر متباينة ، صهرت فى بوتقة المدينة المصرية . فالمدينة هى حجر الزاوية فى الإمبراطورية كما تصورها الإسكندر الأكبر .

إذ كانت الفرصة فى المدينة مواتية لكى تؤثر العناصر الوطنية والعناصر المستوطنة بعضها فى بعض . وفيها تستطيع العناصر كافة أن تجد الجو المادىّ والروحىّ الذى يمكنها أن تعيش فيه . ومدينة « الإسكندرية » شاهد على ذلك . ويجب علينا أن نذكر أنها عرفت رسميًّا بأنها « الإسكندرية المتاخمة لمصر » فليست هى مصر أو من مصر .

وقد كان البطالمة حذرين فى تنفيذ سياسة نشر الحضارة الإغريقية عن طريق إنشاء المدن . فتعارضت سياستهم فى هذا المضمار مع سـياسة منافسيهم السلوقيين فى سوريا . ويرجع ذلك إلى أن البطالمة كانوا يدركون أن المدينة الهيلينية — من

الوجهتين الروحية والمادية – لا بد لها من أن توهن على الأيام الحياة الاقتصادية التقليدية ، وتفكك أواصر المجتمع . لذلك لم يؤثر عنهم إلا شيئان هما : إعلاء شأن الإسكندرية وإنماؤها حتى ازدهرت وأصبحت مركزاً عظيما من مراكز الحضارة الهيلينية . وتأسيس مدينة « توليماس » في الصعيد . وكان البطالمة يفضلون إسكان جندهم في الريف وإقامتهم زراعاً مستعمرين .

وقد كان ذلك بداية ارتباط وثيق بين الريف والمجندين – وكانوا عادة من الأجانب – ذلك الارتباط الذى دام حتى بداية القرن التاسع عشر . وقد اتخذ ذلك الارتباط مظهرين . أحدهما : مرابطة الجند في الريف مثلا . أما المظهر الآخر فهو تخصيص دخل الدولة من الأراضى الزراعية بالذات للإنفاق على القوات العسكرية . ويجدر بنا في هذه الجولة العاجلة أن نلاحظ أن أولى الأمر في امبراطورية الرومان ، رغبة منهم في قهر مقاومة المصريين على التخلى عن قوميتهم ، جولوا عواصم الولايات – تلك المدن التى كان يطلق عليها اسم : « مترو بوليس » إلى بلديات ذات حكم ذاتى . وقد تم ذلك في القرن الثالث الميلادى حينما كانت مصر تجتاز ذاك الطور

من ثقافتها التي كانت مزيجاً من الحضارات المصرية والهيلينية واليهودية ، لتصبح ذلك المزيج الفذ : المسيحية « المصرية » .

وهنا نقف لحظة لنلقى نظرة إلى الوراء، إلى ثقافة ما قبل المسيحية ، وهى التى تسمى عادة حضارة الإسكندرية ، وهى تسمية عملية وإن كانت لا تعطى استمرار التقاليد المصرية الخالصة فى الريف حقها من الاعتبار . ولا عجب فإن تلك التقاليد خبا نورها إلى جانب ما كان للإسكندرية من بهاء وسناء .

ويمكن للباحث أن يستعرض ثقافة الإسكندرية من وجهتى نظر ، هما : وجهة نظر الجماعات الثلاثة التى أسهمت فى تكوينها ، أى من ناحية ما كان لتلك الثقافة من أثر فى ازدهار وتنمية التقاليد الخاصة بكل جماعة منها ، كما يصح أن يستعرضها من ناحية انبثاقها وبزوغها ثقافة إنسانية عامة بالمعنى الحقيقى لذلك الوصف . ومما لا شك فيه أن كلاً من التراث القومى لليهود والهيلينيين كان بفضل ما تم بينهما من اتصال فى مدينة الإسكندرية .

وحسبنا أن نشير إلى ما بذل من جهود متواصلة فى دراسة روائع الأدب الهيلينى الكلاسيكى ، وإلى ازدهار الأدب اليهودى فى الإسكندرية ، مما يبرهن على أن الحضارات القومية المتصلة اتصالاً حيوياً بالحضارات الأخرى تكون دائماً بمنأى عن خطر

الاضمحلال أو الفناء . وبينما كانت التقاليد الثقافية القومية المختلفة تتفاعل على هـــذا النحو تفاعلا مثمراً فيما بينها ، حدث في الوقت نفسه بزوغ اتجاه عامٍّ جديد نحو معالجة الشئون الكبرى لحياة البشرية في هذا العالم . كان هذا الاتجاه في بعض الأحايين غير مباشر ، ومثاله البحث العلمي الذي مارســـه الإسكندريون ؛ وكان هدفهم منه جمع الحقائق وتنسيقها . سواء التي تتعلق بالفلك أو بالطبيعة أو بعلوم الأحياء والجغرافيا أو بغيرها . وكان هذا الاتجاه في أحيان أخرى يهدف إلى معالجة الشئون الكبرى باتخاذ أقصر الطرق ؛ ومثال ذلك إنشاء إله أو معبود واحد (هوسيرابيس) تركيباً من آراء دينية مصرية وإغريقية ، وفي أحيان أخرى كانت تلك الشئون تعالج من الناحيـــة التصوفية والفلسفية . وكانت المشكلة التي تشغل بال الإغريق واليهود ، ومن بعدهم المسيحيين في الإسكندرية ، هي مسألة علاقة الله بالكون وبخاصة بالإنسان .

ولم يقم المصريون بنصيبهم في صخب الحياة الروحية وغمارها وخضمها إلا بعد انتشار المسيحية ؛ وتفتت الصخرة الصلبة صلابة الجرانيت في قلب المجتمع المصري القديم ؛ وكانت ثمرة روحانيتهم المسيحية نظامَ الرهبنة . والنظام في صميمه ولبه

ثورة الفلاحين المصريين ، هى فى ظاهرها ثورة على الحياة الدنيوية ، ولكنها فى حقيقتها وواقعها ثورة على المدينة ، وكل ما ترمز له المدن وحياة المدن ، وقد ترددت فى وهاد الجدب والعقم والعنف والرذيلة .

هذا وقد أعاد انتشار الإسلام « للمدينة » مكانتها المسيطرة المهيمنة فى المجتمع المصرى ، فثقافة مصر الإسلامية ثقافة حضارية . وقد شهدت القاهرة — ولمدى أقل بعضُ المدن فى الأقاليم — ازدهارَ تلك الثقافة ازدهاراً كاملا ، وتبوأت القاهرة مكانة ممتازة بين مراكز الحضارة الإسلامية ، وذلك فى ميادين الفنون ونشر العلم ومرفهات الحياة . هذا وقد درج بعض علماء الغرب على أن ينكروا على المدينة الإسلامية الصفة الحقيقية التى تتسم بها المدينة . ومن رأيى أن ما حدا بهم إلى اتخاذ ذلك الرأى يرجع إلى أن المدينة الإسلامية تفتقر إلى مراسيم إنشاء الأنظمة المدنية ، ولكن مع ذلك لا مراء فى أن مدينة القاهرة الإسلامية قامت بنصيبها الأوفى فى بناء مصر السياسىّ ، وكان هذا بفضل هيئاتها المدنية ومعاهدها الدينية مضافاً إلى ذلك — وهذا ما لا يصح إغفاله — الفنُّ الشعبية ، فنصيب القاهرة فى الأحداث لا يمكن تجاهله .

هذا وبفضل نمو الطوائف الصوفية . وتمسك الشعب عامة بالقصص الشعبي . خلقت الصلات التي كانت تربط الريف بالمدينة . تلك الصلات التي بقيت إلى يومنا هذا .

هذا وقد شهد عصرنا الاتجاه نحو إدماج المدينة والريف في فكرة المواطنة المشتركة ونمو فكرة الدولة . ولكن ما زال أمامنا طريق طويل ، علينا أن نسلكه قبل أن نصل إلى موازنة صالحة بين الاثنين من وجهة النظر الثقافية .

مصر والعهد القديم

ماهى طبيعة علاقات مصر « ببنى إسرائيل » ، أولئك القوم الذين تحدث عنهم العهد القديم وعن أحداث تاريخهم وجهودهم الروحية بتلك الروعة وذاك السناء ؟ هل أسهموا فى تكوين مصر إسهام الحضارة الهيلينية والمسيحية والإسلام والغرب فيه ؟

إننا نعرف أنه كان هناك مصريون مندمجون فى الإغريقية ، وإغريق « متمصرون » ، كما كانت هناك مصر المسيحية ومصر الإسلامية . ونعرف أن الغرب قد سيطر على مصر ، وأن مصر اتجهت إلى الغرب حيناً ، كما أشاحت بوجهها عنه أحياناً . وكان ذلك فى الحالين عن وعى وإدراك .

ولكن ترى هل كانت مصر على علاقات مماثلة مع بنى إسرائيل؟ ولكى أجيب عن هذا السؤال يجدر بى أن أميز بين نوعين رئيسيين من الصلات بين الشعبين .

فأما النوع الأول فيرجع إلى فترة ما بين بداية كتب العهد القديم الرسمية ونهايتها ، أى حتى ذلك الحين الذى كانت فيه مصر وفلسطين مندمجتين فى إمبراطورية الفرس

وفى إبان الأحداث الخطيرة التى ترتبت على فتوح الاسكندر فى القرن الرابع قبل الميلاد .

وأما النوع الثانى فيبدأ عندئذ ، أى عند ما أخذ اليهود فى الاستيطان فى مصر ، وقد قدر لليهود أن يكون لهم أثرهم فى حياة البلاد الاقتصادية والثقافية ، ولكنهم كانوا فى هذه الحالة عاملا من عوامل تكوين مصر المسيحية والإسلامية ثم مصر المتصلة بالغرب ، فيجدر بنا إذن أن نترك أمرهم لأحاديثنا فى تلك الموضوعات وأن نخصص الحديث الحالى لعلاقات مصر بيهود العهد القديم .

ومن رأيى أن تفسيرى لتلك العلاقات يكون أوضح وأبيَن لو اخترت وقائع وحوادث معينة ورتبتها ترتيباً زمنيًّا ،ولنبدأ بزيارة إبراهيم ، وقد وقعت تحت ضغط المجاعة . وهى تبدو لنا مثلا قديماً جدًّا للعلاقات بين الأقوام من رعاة الصحراء أو ما يشبه الصحراء وبين وادى النيل . ويرى بعض الثقات أن قدوم إبراهيم حدث فى عهد الأسرة الثانية عشرة ، كما أن بعضهم يوقتها بعد ذلك . ويجب علينا أن نلاحظ أنه كان لسارة زوجة إبراهيم جارية مصرية ، هى هاجر أم اسماعيل ، وقد أسكنها ابراهيم ببلاد العرب كما هو

معروف . كما يجب علينا ألاّ ننسى قدوم يوسف إلى مصر وما صادفه من تقلبات الحظ بين سعد ونحس ، حتى آل به الأمر إلى توليه السلطة كوزير لفرعون مصر ، ولقد أثرى هو وشعبه ثراء عجيباً ، وابتسم لهم الحظ . ويقول بعض المؤرخين ، ويعارضهم آخرون : إن ذلك حدث في عهد الغزاة الأجانب الذين كانوا يسمون بالهكسوس ، والهكسوس في الواقع فتحوا أبواب البلاد لأخلاط من الناس وفدوا عليها من الشرق . ويبدو أنه في أيامهم ازداد اليهود الذين كانوا يعيشون في مصر عدداً وثراء ، وامتلأت خزائنهم وحظائر ماشيتهم ، كما اكتسبوا مهارة في ميادين الفنون المختلفة المعروفة عند المصريين ، كصناعة المعادن والحفر على الأحجار الكريمة والصياغة والنسيج ، وكان يجمعهم نظام يرأسه « شيوخ » من أنفسهم . وعلينا أن نذكر أنهم عند ما غادروا مصر كان رحيلهم على شكل حشد ونظام عسكرى ، أى رحيل أولئك الذين لم يؤثروا البقاء بعد انتهاء حكم الهكسوس .

وتنتقل بنا القصة إلى ما قامت به الأسرة الثامنة عشرة من أعمال عسكرية باهرة وانتصارات فى آسيا ، وإلى إعادة تنظيم الامبراطورية وإلى الآثار الكبرى التى شادوها وإلى

ذلك الحدث المفاجئ : ثورة أخناتون الدينية . وهذه العبادة التى فرضها إخناتون — عبادة قرص الشمس تحت اسم أتون — يمكن أن تعتبر ، على وجه ضيق — شكلا من الأشكال المتعددة لعبادة الشمس ، ولكنها كانت تقوم على الإيمان بإله واحد قوىّ حىّ . وبذا نشأ نوع من التقارب بين هذا التطور فى عقيدة المصريين وبين توحيد اليهود .

والآن نتساءل ما أثر العقيدتين إحداهما فى الأخرى ؟ وليست الإجابة على هذا السؤال بالأمر الهين ، فإن العمل الجليل الذى قام به إخناتون كان يتسم بطابع الابتكار الشخصى فى طموحه وتحقيقه . ولكن تشابه الأفكار — ودع التشابه اللفظى جانباً — بين أناشيد إخناتون وبين بعض المزامير يسترعى من النظر والفكر ما يدعو إلى دقة وزنه وتقديره حق قدره . ولن تدهش إذا كان زوال سلطة عبدة أتون مرتبطاً بعض الارتباط باضطهاد بنى إسرائيل فى عهد الأسرة التاسعة عشرة كما يرى المؤرخون عامة . وقد يكون هذا الاضطهاد قد بدأ قبل ذلك وأنه نبت فى كراهية المصريين للهكسوس وشيعتهم وأذنابهم . وقد يكون رد الفعل الذى أعقب وفاة إخناتون قد أدّى إلى النفور من جميع عباد

المعبودات غير المصرية . ثم حدث أن فراعنة الأسرة التاسعة عشرة ؛ وقد كان من بينهم فرعون بنى إسرائيل (ولا نعرف من هو) ، اهتموا بتشييد العمائر الضخمة ؛ مدنية وعسكرية ، ولم يسخروا فى تشييدها — كما كان يفاخر رمسيس الثانى — إلا عناصر من غير الأهلين . ونصل بذلك إلى المرحلة التالية ، والشخصية البارزة فيها هى شخصية موسى . الذى أخفته أمه فى بردى النهر لتنقذه من ذلك الأمر القاسى الذى أصدره فرعون بذبح المواليد الذكور كافة ، وتبنته امرأة فرعون . ونما موسى وترعرع فى كنف ثقافة مصرية . ولكن قدر له أن يثور عليها . وقد ورد فى القرآن الكريم ذلك العتاب المؤثر الذى وجهه فرعون لموسى : « ألم نربك فينا وليداً ، ولبثت فينا من عمرك سنين » .

ثم هرب موسى إلى مدين . ثم كان أن اختاره الله وأمره بالذهاب إلى فرعون ، ليكف عن تعذيب بنى إسرائيل ، وليسمح لهم بالخروج من مصر . وتمكن موسى ، آخر الأمر ، من أن يخرج بقومه . وفى رواية العهد القديم وصف البحر الذى عبروه بأنه : « بحر ملىء بالحشائش والعشب » كما لم يرد فيها نص على أن فرعون نفسه كان ممن هلكوا ، وقد حمل

اليهود معهم أمتعتهم ومقتنياتهم وجثة يوسف . ومما هو جدير بالذكر أنه لم يرد ذكر شيء من هذا كله في النصوص التاريخية المصرية ، وسأعود إلى هذا مرة أخرى .

والآن تنتقل القصة إلى الحوادث المتصلة بالتّيه والوصايا العشر ، والاستيلاء على أرض كنعان ، ثم قصة يوشع وعهد القضاة ، ثم قصة صمويل والمملكة حتى حكم سليمان ، وما امتاز به من ضخامة وعظمة .

ومن هنا — حتى نهاية العصر الذى حددناه — تتناول شرح ما يجوز تسميته بسياسة توازن القوى .

ننتقل الآن إلى سوريا وفلسطين مقسمة بين دويلات ومدن متناهية في الصغر ، وتحيط بها دول ملكية قوية تمارس بنشاط وهمة سياسة التغلب . ولذا فإننا نجدها تحاول أن تملك أوتسود الأراضي الفلسطينية السورية ، وكانت بمثابة الجسور والمعابر ما بين مصر وغربي آسيا ، ومن ثم اهتمت مصر اهتماماً عظيما بشئون جيرانها . ولما لم تكن من القوة والسلطان بحيث تستطيع الاستيلاء على أرضهم أو ضمها إليها إلا فترات قصيرة من الزمن ، فإنها وجهت جهودها للحيلولة دون وقوع

تلك البلاد فى أيدى أعدائها ، ولو حدث وسقطت تلك البلاد بالفعل فى أيديهم فإن مصر كانت تعمل على إثارة المتاعب لمحتلها . وقد كان هذا قصارى جهدها فى ذلك الحين ، إذ كانت قوتها قد أخذت فى النقصان ، بيد أن أثرها فى الثقافة اليهودية كان ملحوظاً فى عصر سليمان فنشأت صلات تجارية بين البلدين ، وكانت مركبات الحرب والخيل أهم صادرات مصر ، كما أننا نشاهد نفوذ مصر فى ازدياد المظاهر الملكية عند اليهود . وترجع فخامة العمارة وأبهتها فى عصر سليمان بعض الشيء إلى محاكاته المصريين دون شك ، فشكل المعبد ذاته فى جملته بأبهائه ومدخله ، والعمودان البارزان القائمان كالمسلتين أمام المدخل ، وكذلك الأسدان القائمان على عرش سليمان ، كل ذلك يحمل الطابع المصرى . وفى الحقيقة كان نظام ملكه منقولا عن الإمبراطورية المصرية الكبرى .

والآن كيف نقارن بين هذين الشعبين ؟ لقد كانا على طرفى نقيض فى كل شيء . كان أحدهما يمثل مجتمعاً مستقراً متماسك الأطراف مترابط الصلات ، تحت سلطان حكومة دينية دنيوية ، أما الآخر فشعب قلق مضطرب يسعى إلى بلوغ اليقين ولا يكاد يبلغه . ولم يكن بينهما يوماً من الأيام

وُدٌّ موصول . قال المؤرخ المصرى مانيتون : إن اليهود انحدروا من شطر من الشعب المصرى طرد من مصر على أثر إصابته بالبرص والقراع . ولكن كم من الناس يقرأ مانيتون ؟ وعلى أية حال فإن كتبه قد ضاعت . ولم يرد ذكر إسرائيل كثيراً فى سجلات تاريخ مصر ، ولكن إذا أردت النظر إلى الجانب الآخر رأيت أن العقيدة اليهودية قد لقحت بالمسيحية ، وأن العهد القديم جزء من الكتابات الدينية المسيحية . وأن الصورة التى وردت عن مصر والمصريين فيها قد انطبعت فى عقل كل طفل وكل رجل وامرأة فى العالم المسيحى جيلاً بعد جيل ، بحيث لا يمكن أن تحل محلها أية صورة أخرى تخالفها . زد على ذلك أنها ترد فى كتب سماوية ، وعلى أساس ما كان لتلك الصـــورة اليهودية من أثر فى عقول الملايين من اليهود والمسيحيين وفى موقفهم العقلى والعاطفى لا من مصر الفرعونية فحسب ، بل من مصر عموماً يمكن القول بأن كتب العهد القديم قد عملت هى أيضاً فى تكوين مصر ، وإن كان ذلك على نحو خاص بها .

مصر والهيلينية

ما هى الهيلينية ؟ يرى بعض المؤرخين أنها ثقافة جديدة تتركب من عناصر إغريقية وعناصر شرقية . بينما يرى آخرون أنها امتداد الحضارة الإغريقية إلى الشرقيين . وفى نظر فريق ما هى إلا استمرار المدنية الإغريقية الأصلية . وهناك فريق آخر يرى فيها المدنية الأصلية نفسها معدلة بظروف جديدة .

ولندع هذا وذاك ونقول مع المؤرخ « تارن » إن «الهيلينية» ما هى إلا وصف موجز لمدنية القرون الثلاثة التى بدأت بفتوحات الإسكندر الأكبر . والتى انتشرت فيها الثقافة الإغريقية بعيداً عن موطنها الأصلى . ولهذا الرأى ميزته . وهى تناول الموضوع موحداً . ولكن ينبغى علينا أن نتذكر دائماً أن القرون الثلاثة التى حددها الدكتور « تارن » كانت اتصالا لحركة توسع واسعة النطاق ، لا من جانب إغريق بحر إيجه فحسب . بل من جانب أقوام آخرين اتصفوا بالإقدام والمخاطرة . وبخاصة الفينيقيين والأترورريين . كما يجب علينا أن نستذكر أنه حدث بعد تلك القرون الثلاثة أحداث تكوّن جزءاً لا يتجزأ من قصة الحضارة الهيلينية ، ألا وهى · إنشاء

الإمبراطورية الرومانية ، ونشر الديانة المسيحية .

أما الشطر الثانى من تعريف الدكتور « تارن » وهو إشعاع الحضارة الإغريقية من موطنها الأصلى . فهذا أيضاً مما يجب إدراكه جليًّا ، وأودُّ أن أشرح فى هذا الحديث حقيقة ما كان من أمر هذا الإشعاع واتجاهاته وحدوده . وفى الحق سوف نلاحظ أن إشعاع الحضارة الهيلينية كان أبلغ أثراً وأجدى ثمرة بعد انقضاء القرون الثلاثة للعصر الهيلينى بأمد طويل ، وفى أوضاع لم تخطر على بال الأسرات اليونانية المالكة التى ورثت الإسكندر وكذلك لم تخطر على بال الأباطرة الرومانيين ، ولا فى مواطن لم تصل إليها جيوشهم : لا فى فارس تحت حكم الساسانيين . ولا فى العراق تحت حكم الخلفاء العباسيين ، ولا فى ظل مدارس التفكير الإسلامية والمسيحية ، ولا فى فنون الساسانيين والشرق الأقصى والفنون القبطية ، كما لم ينبعث هذا الإشعاع المثمر من الإسكندرية أو أنطاكية اللتين ظلتا تحت سلطان الإغريق والرومان قرابة ألف سنة ، بل انبعث من مدن غير مطروقة لا تخطر على بال ، كجنديسابور فى غربى فارس أو واحة مرو فى حوض نهرى سيحون وجيحون ، أو من حرّان مدينة الصائبة فى الجزيرة .

وأدوار الحضارة الهيلينية الأولى – كما حددتها – تتوافق مع زوال عصر الإمبراطوريات القديمة . إن لم تكن قد ترتبت عليه ، أفلت فيه نجوم وبزغت أخرى ، ودرست الإمبراطوريات المصرية والأشورية والبابلية الجديدة ، ودخلت فى خبر كان . وعلا شأن شعوب فتية : هم الإغريق والفينيقيون والأترووريون والميديون واليهود والآراميون والرومان . وقد امتد نشاط هذه الشعوب إلى ميادين أوسع وأرحب من تلك الإمبراطوريات القديمة ، وانطلقوا فى البحر والبر على السواء ، ولم يقفوا عند حد إقامة دولة قوية فحسب . ولم تكن فتوحاتهم عملا حربيًّا صرفاً ، بل أضافوا إلى تاريخ الإنسانية فصلا أكثر غنيًّا بحوادثه ، وأكثر إثارة للتأمل مما سبقه من الفصول .

إلى جانب هؤلاء أتى قومنا المصريون ، وقد تقدمت بهم السنون ، وأثقلت كواهلهم أحداث الماضى ، ولم يبدءوا حياة جديدة قادرة على الخلق والابتكار ، ولم يتلقوا رسالة من الأمل إلا عند مقدم المسيحية وظهور الإسلام .

وكان أول ما تلاقت مصر بالهيلينية عند ما قدم المغامرون الإغريق إلى مصر تجاراً وملاحين وجنوداً مرتزقة ، وقد استخدمهم الفرعون « بساماتيك » وحلفاؤه برًّا وبحراً فى قتال

الأشوريين والفرس وحلفائهم من بعدهم ، وفى قتال الفينيقيين ، وفى فتنهم وحروبهم الداخلية . وقد استقر هؤلاء الإغريق فى مدن عسكرية ، وفى مدينة « نوقراطس » وفى بعض أحياء المدن المصرية الصميمة . ومنحوا حرية تنظيم مدنهم وأحيائهم وفقاً لأسلوب معاشهم الخاص . وفى ظل قوانينهم وأنظمتهم . وكانوا تجاراً — أو على الأصح وسطاء — كما كانوا جنداً وملاحين . وكانوا يمارسون مختلف الصناعات ولم يكن بينهم وبين المصريين ود موصول . بل كانت تثور العداوة بينهم أحياناً . ولا عجب . فالإغريق فى نظر المصريين لا يكادون يستقرون على حال . أطفال قلقون ، وليسوا — فى الغالب — رجالا يمكن الوثوق بهم أو الاعتماد عليهم . والمصريون فى نظر الإغريق يرزحون تحت عبء الكهولة والوقار والخزعبلات الموروثة . وكان شعور الإغريق نحو مضيفيهم الذين لم يرحبوا بهم ترحيباً كثيراً هو شعور التطلع والاستغراب المتفكه الذى لا يخلو من الاحتقار . وقد زار مصر مشاهير الإغريق كأفلاطون وسولون وهيرودوت . ولكن يجدر بنا ألا نغالى فيما أثمره هذا اللقاء . من أثر ثقافى متبادل .

وفى هذه الأثناء كان سلطان فارس يمتد سريعاً . وهكذا

بينما نشهد انتشار الهيلينية من الغرب نحو مهاد المدنيات القديمة .
كان الفرس بنو عمومة الإغريق الأباعد يبسطون سلطانهم على ما يقع غربيّ بلادهم . وقد كان هذا التوسع الفارسى نقطة البداية للتبادل الثقافى المثمر مع شتّى الشعوب فى سوريا . فعاد اليهود إلى أوطانهم من المنفى واتسع المجال لانتشار الثقافة الآرامية . وزاول الفينيقيون نشاطهم التجارى فى إمبراطورية فارس . ثم حدث أن امبراطورية فارس جاورت المدن الإغريقية فى آسيا الصغرى ، ولم ترتحْ لجوارها فكان أن تشعبت الحروب المشهورة بين الفرس والإغريق . فى الوقت نفسه كان حلفاء فارس وهم الفينيقيون يشنون حرباً شعواء ، ويصارعون الإغريق صراع حياة أو موت ، وذلك فى أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط كافة ، وكانوا فى ذلك الصراع متحالفين مع الأتروريين .

وقد أدى ذلك كله إلى امتلاك فارس لمصر ، ولكنها أخفقت فى إخضاع المدن اليونانية ، بينما اضطر الإغريق إلى الانسحاب من غربى البحر الأبيض ، وتركه لسيادة قرطاجنة وهى المستعمرة الفينيقية الذائعة الصيت .

ولكن الآية لم تلبث أن انعكست تماماً ، واستطاع

الإسكندر الأكبر فى خمس سنوات فقط أن يحطم إمبراطورية فارس ، وأن يقود جحافله إلى الهند . وكان هذا إيذاناً بفتح صفحة جديدة فى قصة الحضارة الهيلينية وفى تاريخ مصر . وآن لمصر أن تعرف الإغريق حكاماً عليها لا جنداً مرتزقة أو تجاراً صغاراً ، بيد أن الحضارة الهيلينية التى دخلت مصر تحت حكم البطالمة وخلفائهم الرومان لم تكن الحضارة الأصيلة التى ترد على خاطرنا كلما ذكرنا تلك الأسماء الخالدة : بركليس وأفلاطون وسوفوكليس . لا ، لم يكن شىء من هذا ، فالبطالمة لم يسمحوا بإنشاء النظم الحرة بين رعاياهم الإغريق ولم يتيحوا لرعاياهم المصريين فرصة المواطنة الحقة فى دولة ذات قومية حقيقية ، بل على العكس من ذلك ، بقى الإغريق منعزلين وظلوا طائفة مميزة ، وهو أسوأ ما يمكن أن يحيق — آخر الأمر — بأية طبقة من طبقات الشعوب . وظل المصريون يعملون — كما فى التعبير الإنجليزى — « حطابين محتطبين ومالئى الدلاء » ، يعاملون معاملة الأجناس المستعبدة ، يكدّون ويكدحون حتى يسقطوا من الإعياء ، حرموا من أن أن ينهض بينهم زعماء منهم ، وتركوا نهباً لقساوستهم المتعصبين وقد أبقى المسلوك البطالمة وقياصرة روما على السخافات

والمساخر الدينية ، عن سوء قصد ونية ، وأصروا على الإمعان فيها ، وهم فى قرارة أنفسهم يحتقرونها بكل جوارحهم .

وماذا كانت نتيجة هذا كله ؟

كانت نتيجته تكوين مصر . يصفها المؤرخ الرومانى « ناسيتوس » فيما يلى بقوله :

« هى ولاية من العسير الوصول إليها ، تنتج الغلال ، مشتتة الفكر والخواطر وسريعة الاستجابة لدواعى الفتن تحت تأثير الخرافات والفوضى . تجهل القانون ولا تعرف خطط القضاء والحكم ! » .

وتكلم « بوليبيوس » ، مؤرخ رومانى آخر ، عن شعب الإسكندرية فوصفه بالشعب الهجين :

ووصف « دون كريزوستوم » المتبحر فى علوم البيان والجدل والسفسطة ، الإسكندرية بأنها مدينة قد جنت بالطرب وسباق الخيل ، لا تشتغل بأى شىء جدير يعظمتها ومكانتها .

وإنه لأمر يسترعى النظر أنه مهما كد القارئ فى البحث عن تأثير مصر والمصريين فى أدباء الإسكندرية اليونانيين لم يجد شيئاً يعتد به ، لا فى منثورهم ولا فى منظومهم على حد سواء .

(٥)

هذا وإن كانت قد نشأت فى ريف البلاد جاليات مختلطة من المصريين والإغريق متأثرة فعلا بالحضارة الإغريقية. فإن هذه الجاليات كانت من ضعة القدر والمكانة : بحيث لم تستطع أن تنتج أو تثمر تلقيح الحضارة المصرية بالحضارة الهيلينية . وقد تأثر اليهود أيضاً بالحضارة الإغريقية تأثراً اقتضى أن تترجم كتبهم الدينية إلى اليونانية لكى يستطيعوا فهمها والانتفاع بها . ولكن اليهود — كعادتهم — شغلتهم أنفسهم عن أى شيء آخر . حقاً كان العصر كله عصر استغلال وأثرة وعداوات للشعوب . ولم يبد أى فريق ممن برزوا على مسرح التاريخ خلاله أحسن ما عنده .

وجاءت الثورة من الطبقات الدنيا : فاضطر البطالمة — وهم يرزحون تحت ضغط الإعياء الاقتصادى ، ووقف تدفق المهاجرين الإغريق . وفى سبيل مواصلة حروبهم مع الأسرات المقدونية المالكة الأخرى — إلى استخدام رعاياهم المصريين جنوداً ؛ ولذا شرعوا فى التخفيف من وطأة حكمهم وأنظمتهم . وأضاف مقدم الرومان عمراً جديداً إلى ذلك الطراز البغيض من الحضارة الهيلينية . ولكن الثورة التى بقيت تعمل فى الأعماق تمكنت فى النهاية من أن تقضى

على ذلك الصرح الشامخ الذى شيده قياصرة روما . وكانت
هذه هى مهمة المسيحية . وما حققته من عمل مجيد .

أما عن تحرر مصر من الكابوس الهيلينى الرومانى ، فهذا
ما سأتناوله فى حديثى المقبل . وسنرى عندئذ أن الحضارة
الهيلينية لم تعمل فى تكوين مصر عملا نافعاً خيِّراً إلا عن طريق
ذلك العنصر الإغريقى الكامن فى المسيحية .



مصر والمسيحية

يدخل فى تكوين مصر عنصر مسيحىّ هام كل الأهمية ، وليس مردّ ذلك إلى أن المسيحية عقيدة فريق من أبنائها فحسب . بل لأن المسيحية فى عالم مسيحىّ هى التى كونت النظرة الروحية لأبنائها كافة .

وقد كانت مصر التى حمل إليها يوحنا مرقص المبشر بالإنجيل رسالة المسيحية — كما جاء فى الرواية المتواترة — خليطاً من طرازين مختلفين من البيئة ، فمن ناحية كان هناك سكان المدن الذين يتكلمون باليونانية وبخاصة فى الإسكندرية وهم من الإغريق والمصريين المشبهين بالإغريق واليهود ، وهؤلاء جميعاً تأثروا بالمؤثرات الدينية والثقافية السائدة فى المدن الهيلينية فى القرن الأول من العهد المسيحى . وتأثروا من الناحية الأخرى بطراز البيئة المصرية الصميم . أما فى البيئة الحضارية التى كانت تضم ذلك الخليط من الطوائف الذين ذكرناهم ، فقد كان القوم فى تلك الآونة ينشدون تلك الوحدة التى كانت لأمراء يستمدون وجودهم من وراء

مختلف الآلهة وعباداتهم ، كما كان القوم يسعون أيضاً نحو الحصول على طهارة الأنفس ، وقد احتوت الديانة المسيحية — بالإضافة إلى شخصية السيد المسيح — على شيئين حيويين خلت منهما الديانة الهيلينية . ففى تلك الديانة . بوجه عام . لم يكن يؤمن بعقيدة الخلود فى عالم آخر إلا قلة من الأخيار المحسنين أو جماعة من المطلعين على أسرار بعض الديانات ذات الطقوس السرية التى تعلق بها الناس إذ ذاك . أى لم تكن عقيدة الإنسانية عامة . ولم يكن حب الإنسانية أساس أية عقيدة هيلينية . كما لم تحمل واحدة منها رسالة إلى البائس والمسكين والخاطئ والمسيء . وقد كان مذهب الرواقيين أقرب المذاهب إلى ذلك المثل الأعلى الإنسانى . ولكننا لا نجده يفسح مكاناً للمحبة . ولذا لم يكن للعاملين المرهقين المثقلين إلا أن يضعوا الرجاء فى شيء آخر لم تستطع العقائد الهيلينية أن تقدمه إليهم . ولكن ينبغى علينا أن نذكر فى الوقت نفسه إسهام التفكير الإغريقىّ والتفكير اليهودىّ بنصيب وافر فى ميدان الفلسفة والتصوف . فى المحاولة التى قام بها الآباء المسيحيون الأولون فى مدينة الإسكندرية وغيرها ، لعرض الحقائق المسيحية ، إسهاماً يقوم على النظر العقلى ، ويستسيغه

العقل . لا لتعليم المؤمنين المسيحية فحسب ، بل لتعليمها الوثنيين الذين أشربوا الفلسفة اليونانية أيضاً ، ويكفينا أن نذكر فى هذا الصدد مدرسة التعليم الدينى الشهيرة بالإسكندرية ، والاسمين اللذين طبقت شهرتهما الآفاق : « كليمنت وأوريجين » . ويجدر بنا ألا نغفل أهمية ما أسدته اللغة اليونانية فى سبيل نشر المسيحية . فالكلمات الأساسية كافة فى العقيدة المسيحية يونانية الأصل : المسيح (كريست) والتعميد « بابتيزم » والافخارستى والدياكون والقس (بريست) والمطران (بيثوب) والرسول (أبوسل) والإنجيل .

وسأشرح بعد قليل ما كان لليونانية من أثر فى تكوين اللغة القبطية والكنيسة القبطية .

أما البيئة الأخرى ، بيئة الإيمان المصرى الخالص ، والرجاء المصرى الصميم . فتختلف كل الاختلاف عن البيئة الحضارية التى وصفتها . فقد كان شغلها الشاغل إقامة الشعائر التى تطلبتها عبادة أوزيريس . وتقوم تلك العقيدة على توجيه الإيمان وتوجيه الطقوس للحصول على البعث بعد الموت بفضل أوزيريس . الذى بعث حياً بعد أن أرداه الشر قتيلا ، ولذا كان هم المؤمن المصرى أن يؤدى الطقوس السحرية

التي بها تغلب أوزيريس على الموت ، ولو أن الوازع الخلقي لم يغب عن المؤمنين المصريين فقد آمنوا أيضاً بالحساب والميزان يسبقان نعيم الأخرى . فلم يكن عجباً إذن أن تلقى المسيحية وقد نادت بالمخلص الذى قهر الموت أذناً صاغية ولقاء حسناً . وكان من عظمة المسيحية أنها لم تجتذب إليها الطبقة الوسطى الدنيا والطبقة الوسطى العليا فحسب ، بل إنها كانت العقيدة التي اعتنقها عامة الشعب فى الحضر والريف بحرارة وإيمان .

ومن دلائل سرعة انتشار الرسالة المسيحية بين المصريين الحاجة الماسة إلى ترجمة كتب العهد الجديد إلى اللهجات القبطية السائدة فى البلاد ، ويبدو أن اللهجة المسماة « بالبحيرية » هى التي أصبحت اللهجة الرسمية للكنيسة القبطية .

ولكن ، إلى جانب الكتب المقدسة الرسمية ، نبتت وفرة كثيرة من الكتابات الدينية غير الرسمية كان يقصد بها أولا وقبل كل شيء إيجاد مادة قراءة الشعب ، كسيَر العذراء ومناقبها ، وروايات تتعلق برسالة المسيح وعذابه . هذا ، وإنا لنستطيع الإسهاب فى موضوع استمرار الروح المصرية — — وبخاصة روح الفلاح — وطموحها وأمانيها الروحية ، ولكن يكفينا فى هذا أن نقتبس تلك الجملة من كتابات

هارناسلك مؤرخ العقيدة .

« إن المسيحية قد لاءمت فى مصر بين خصائصها وبين خصائص الدين القديم الأساسية لمدى أوسع مما شهدناه فى أى بلد آخر . اللهم إلا إذا استثنينا بلاد اليونان . فإن كان أكثر المصريين قد أصبحوا عند منتصف القرن الرابع مسيحيين ، فمرد ذلك إلى أنهم خلقوا لأنفسهم ديناً قومياً من المسيحية وذلك بأن لقحوا هذه الديانة ببقايا معتقداتهم القديمة وآمالها » :

هذا وبالإضافة إلى تكوين اللغة القبطية بمعونة من اليونانية يجب ألا نغفل نمو الفن القبطى ، أو بمعنى أدق الفن المصرى المسيحى ، الذى وصلت بعض طرائقه وأساليبه من إيران عن طريق سوريا ، والذى يمتد انتشاره جغرافياً إلى مدى فسيح يسترعى النظر ، فقد ذكر « دالتون » فى الدليل الذى وضعه عن أقدم الآثار المسيحية والبيزنطية فى المتحف البريطانى أنه عثر على آنية برونزية من طراز قبطى فى مقابر إنجليزية سكسونية . هذا ولا يقل إشعاع الفن القبطى زمنياً عن انتشاره فى أقطار الأرض ، إذ أن طرائق الفن القبطى وأساليبه كانت عاملا من العوامل المؤثرة فى فنون مصر الإسلامية

وصناعاتها . وهذا دليل آخر على أهمية العنصر المسيحيّ فى تكوين مصر .

هذا وإذا كان الفن القبطى تعبيراً عن الخصائص الدينية لمصر المسيحية ، فإن نشأة حياة الرهبنة ونموها لهى وجه آخر من أوجه التعبير . يعتبره العلماء أكثر ما ساهم به الشعب المصرى بروزاً وجلاء فى تراث المسيحية .

وإنا لنكتفى بالقول دون الدخول فى التفاصيل أن الرهبنة بدأت بفرار الأفراد إلى البرية هرباً من شرور العالم ورذائله . ثم أخذت شهرة بعض الصالحين النساك تجذب الناس إلى العيش بجوارهم ، يلتمسون منهم الهداية . وكان ذلك حال «انطنيوس» الشهير . ولكن يرجع الفضل فى تنظيم الرهبنة إلى عبقرية « باخوميوس » . فقد كان للقواعد التى وضعها تأثير بالغ فى نمو أنظمة الرهبنة فى المسيحية الغربية وغيرها ؛ ولكن الرهبنة فى مصر لم تكن أمراً روحانيًّا صرفاً . بل كانت عاملا فى التطور الاجتماعى ، والتطور الدينى ؛ فأثرت تبعاً لذلك ، فى مصائر البلاد بأجمعها .

وقد انتظمت المسيحية فى كنائس شكلت على طراز الأنظمة

الرومانية الإمبراطورية ، وتركزت الكنائس الرئيسية فى مدن اشتهرت فى التاريخ . كالإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية وروما . وكان من شأن اختلاف الأمزجة القومية والمنافسات بين الأمم والأشخاص أن نشأت اختلافات مذهبية ، فنبت ذلك النقاش وذاك الجدل الذى شاع وذاع بين أريوس وأثناسيوس فى القرن الرابع . وانتهت تلك الجولة بأن قرر مجمع نيقية إدانة أريوس بالإلحاد (الهرطقة) ، كما نشب خلاف آخر حول الأقانيم كان من أثره انحياز الكنيسة المصرية — ومعها فى ذلك كنائس شرقية أخرى — إلى رأى فى طبيعة السيد المسيح يعرف بالمذهب المنوفيسى . أى الطبيعة الواحدة ، وانحازت الكنيسة الإمبراطورية إلى قول آخر . وعمل هذا النزاع المذهبي وما صحبه من اضطهادات وإحن واضطرابات وتدهور اقتصادى على إضعاف الصلة التى كانت تربط البلاد بالإمبراطورية الرومانية عند حدوث الفتح الإسلامى فى القرن السابع .

وقد فسر المذهبان « المنوفيسى » و« النسطورى » على أنهما يمثلان احتجاج الشعوب الشرقية على السيطرة الهيلينية السياسية والاقتصادية والثقافية . وقد أشار هارتاسك ، الحجة الذى

سبق لنا الاقتباس منه ، إلى أن بطارقة الإسكندرية لم يقتصر طموحهم على السيطرة على الكنائس الرئيسية الأخرى ، بل تعدى ذلك إلى التطلع إلى أن يجعلوا من مصر دولة دينية مستقلة . ويؤيد هذا ما ذهبت إليه الآنسة رويار المؤرخة الثقة للإدارة البيزنطية من أن العرب الغزاة لم يروا فى مصر إحدى ممتلكات بيزنطة ، بل بدت لهم مملكة تكاد تكون مستقلة . هذا وبينما كان رهبان أديرة مصر من أبناء الفلاحين يؤيدون الكنيسة القبطية فى صراعها ضد أولى الأمر الحاكمين الأجانب ، موظفين مدنيين وكنسيين ، فإنه لا يمكن القول بأن تلك الأديرة كانت عنصراً من عناصر النظام أو الاستقرار فى حياة الكنيسة الوطنية ذاتها .

وبالاختصار هذا هو مجمل القول فى هذا الموضوع الكبير ، وسأحاول فى حديثى التالى وصف ماخلفه تراث مصر المسيحية لمصر الإسلامية .

وآمل أن أبين حينئذ أن خير طريق يسلكه اليوم مسلمو مصر ومسيحيوها على السواء لكى يفهموا أنفسهم هو أن يعملوا على فهم الإسلام والمسيحية على حد سواء .

مصر والإسلام

غزت جيوش الخلافة مصر سنة ٦٤٠ بعد الميلاد ، وقطعت العلاقة التي كانت تربطها بالإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وبذا أصبحت مصر جزءاً من دار الإسلام . إلا أن العملية التي أصبح بها المصريون مسلمين يتكلمون العربية تمت بالتدريج ، إذ جاء انتشار الإسلام عن طريق اعتناق سكان البلاد المسيحيين الإسلام تدريجياً ، كما جاء نتيجة لاستيطان الوافدين من بلاد العرب . وقد تمشى انتشار اللغة العربية مع انتشار الإسلام جنباً إلى جنب إلا أن انتشار اللغة كان أشمل وأتم من انتشار الديانة فهي لغة الأهلين كافة — المسلمين منهم والمسيحيين — على السواء .

ونستطيع أن نقسم تاريخ مصر الإسلامي على وجه العموم إلى فترتين مختلفتين كل الاختلاف في الطول ، فالأولى تستغرق من منتصف القرن السابع حتى نهاية القرن الثامن عشر ، بينما تشمل الثانية السنوات المائة والخمسين الأخيرة .

وقد شهدت الفترة الأولى تكوّن ثقافة إسلامية بلغت قدراً كبيراً من الاستقرار والتماسك سواء فى أيام ازدهارها أو فى عصر انحطاطها ؛ وسواء نظرنا إليها من وجهة بنائها الداخلى أو من وجهة علاقاتها الخارجية . أما الفترة الثانية فقد شهدت إخضاع تلك الثقافة لدوافع وحركات من الشد والجذب ؛ كانت ذات تأثير بليغ فى كيانها . ولما كانت اتصالاتها بالحضارة الغربية هى المسئولة عن حدوث عوامل التغير — فإنى سأتناول الفترة الثانية من تاريخ مصر الإسلامية فى حديثى التالى — عن مصر والغرب — خاتمة هذه الأحاديث .

أما هذا الحديث فيتناول نشأة الثقافة الإسلامية ؛ وبلوغها كمال نموّها . وعلى أن أبدأ ببناة تلك الثقافة . فإن وفود العرب على البلاد كان إيذاناً ببزوغ فجر عملية جديدة من عمليات بناء الأمة المصرية فاجتذب الريف المصرى رجال الصحراء إليه — وما زال حتى الآن يجتذبهم . وارتباط مصر بدار الإسلام فتح أبوابها — وبخاصة أبواب مدنها — للمستوطنين من البلدان الإسلامية الأخرى ، وبخاصة من بلاد المغرب ومن فلسطين وسوريا ، وقيام دول من المماليك ، واعتماد تلك الدول على جيوش مؤلفة من أبناء الرق أدّيا إلى

قدوم جموع من الجوارى والعبيد من مختلف العناصر والأجناس من أتراك وشراكسة وصقالبة ومن إليهم . أضف إليهم مستوطنين من شتى السلالات الإفريقية . والآن نتساءل إلى أيّ مدى تمثلت الأمة تلك العناصر؟ إذا اتجه النظر إلى أهل الريف فإننا نجدهم – قديمهم وجديدهم – يستوون فى الانتماء إلى طائفة من الفلاحين ؛ بيد أن بين الفلاحين فروقاً لا تخفى . ففلاحو الدلتا مختلفون عن فلاحى الصعيد ، بل الاختلاف ظاهر من مديرية إلى أخرى . أما فى المدن فكان القادمون الجدد أميل إلى الارتباط ممن سبقهم من أبناء بلادهم . يزاولون ما يزاول هؤلاء من حرف أو أعمال ، ومن وفد منهم إلى مصر للتعلم ؛ فإنه يلحق بمعاهد الأزهر « أروقته » المخصصة لبنى قومه أو لأهل مذهبه . ومن جاء للتجارة فإنه يستقر فى السوق المخصصة لسلعه ومتجره ، أو سوق « الأمة » التى ينتمى إليها . ومع ذلك فلم تكن هناك حواجز تحول دون الاختلاط ، فاختلط المسلمون الوافدون بالمسلمين من أهل البلاد ، كما اختلط المسيحيون الذين جاءوا من الشام بالأقباط وغيرهم :

أما الطائفة التى بقيت بمعزل عن الأهلين فقد كانت طائفة

التجار الوافدين من أوروبا ، وقد ظلت طائفة قليلة العـــدد نسبياً حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وكان مجال نشاطها قاصراً على تجارة الجملة ، ولذا لم تتصل إلا بقليل من أهل البلاد أغلبهم من الرعايا اليهود والمسيحيين ، ولم يكن للأوروبيـــين حتى نهاية القرن الثامن عشر أية رسالة ثقافية ، كما أنهم لم يتلقوا شيئاً ما عن الأهلين ، إلى جانب ذلك نشطت التجارة مــع بقية العالم الإسلامى ومع تلك البلدان فيما وراء البحار ، فى قارتى إفريقية وآسيا التى وصـــل إليها نشاط التجار العرب وسفنهم ، وهذا الاتصال المستمر المستديم بالعالم الخارجى هو الذى يميز تاريخ مصر الإسلامية عن تاريخ مصر المسيحية ، ومما يفسر هذا الفرق بين التاريخين أن مسيحيي مصر (فيما عدا فئة قليلة من العلماء) لم تجمعهم بالعالم المسيحى فى الشرق والغرب لغة مشتركة كاللاتينية والسريانية ، وكانت لغتهم القبطية وقفاً عليهم وحدهم ، بينما كان لدى مسلمى مصر ولسانهم — العربية — وسيلة المشاركة فى حركة الثقافة الإسلامية .

ولكن هل تعنى تلك المشاركة أن ليس لثقافة مصر الإسلامية ذاتية خاصة بها مميزة لها . وللإجابة على هذا السؤال نقول : إنه كان لمصر — شأنها فى ذلك شأن الأقاليم الكبرى لدار

الإسلام — ذاتيتها ، ولكن ، يجب أن نتذكر دائماً أن احتفاظ مصر بذاتيتها لم يكن من شأنه النزوع نحو العزلة أو الانطواء على النفس ، بل كان يتجه نحو الملاءمة بين العناصر الثقافية المستوردة وبين بيئة خاصـــة ، وهنا نقرر ما كان للعناصر المسيحية المصرية فى البلاد من الأثر الكبير فى إجراء تلك الملاءمة سواء منهم فى ذلك من احتفظ بمسيحيته أو تحول إلى الإسلام ، فقد علموا الوافدين على البلاد كيف يعيشون تلك العيشة التى تلائم خير الملاءمة ظروف مصر ، من حيث أساليب الزراعة وطرائقها ، ونظام حيازة الأراضى ومسحها وريها ، ومايستتبع هذا كله من نظم إدارية ، وكذلك الصناعات القائمة على استخدام المواد الأولية التى بين أيديهم على أحسن ما يتفق وأحوال البلاد الطبيعية ، هذا إلى جانب وضع الأنماط والرسوم التى ترضى أذواق الأهلين المتوارثة . أما عن مساهمة الأقباط فى الجانب العقلى من الثقافة الإسلامية فأمر ليس من اليسير الكلام فيه ، وإنى لأرى أن من الأسلم لنا أن ندمج العنصر المسيحىّ المصرى الخاص فى مجموع ماساهم به الفكر الهيلينىّ والفكر السريانىّ المسيحىّ فى بناء صرح الثقافة الإسلامية عامة ، ولا أستثنى من هذا القول إلا شيئين — أولهما : أن

(٦)

ثمة ظروفاً مصرية محلية أثرت فى اتجاهات معينة للفقه الإسلامى.

وثانيهما : هو أثر مساهمة الأدب الشعبي المصرى القديم فى الأدب الشعبي العربى .

ونتناول بعد ذلك باختصار موضوع « الذاتية » المصرية فى حركة التاريخ الإسلامى ، ونظراً إلى أن هذا الوجه من أوجه الثقافة هو أكثر استجابة لأثر البيئة الجغرافية ، فإننا نلاحظ أن تطور مصر الإسلامية يجرى على نسق خاص بها . بيد أن هذا الاتجاه كان فى الوقت نفسه سريع التأثر بمبادئ الإسلام الأساسية ، وبالحركات الإسلامية عامة ، كما حدث أحياناً أن مصر لم تعد أن تكون مجرد أساس اتخذه من اتخذه للعمل على تحقيق غايات تخص مصر وغير مصر .

هذا وبينما أقرر صحة هذه التحفظات فإنه من الواضح الجلى أن تاريخ مصر سار وتطوّر وفقاً لخطوط تختلف اختلافاً بيناً عما سار عليه تاريخ العراق ، أو تاريخ المغرب . ولم يكن شأن مصر ولاية ممتازة من ولايات الخلافة الإسلامية أو الدولة العثمانية شأن الولايات الأخرى ، وكذلك لم يكن شأن مصر مقراً لخلافة شيعية ، أو دولة من دول المماليك شأن الممالك الإسلامية الأخرى .

والآن يجدر بنا أن نتساءل : ترى كيف يمكن أن تقارن الثقافة الإسلامية التي نمت وترعرعت في بلادنا بثقافة البلدان الإسلامية الأخرى ؟ إن الرد على ذلك يمكن أن يلخص في العبارات الآتية :

إن ثقافتنا الإسلامية بلغت مستوىً وسطاً ، فلم ترق إلى ما سمت إليه في ديار أخرى ، كما لم تهبط إلى ما هبطت إليه في ديار أخرى . وإن أصالة ثقافتنا الإسلامية لترجع إلى تماسكها الشامل وارتباطها المحكم أكثر من رجوعها إلى أي وجه خاص من أوجه الحياة الثقافية . فهي — مثلا — لم تنتج من الشعر الرفيع ما أنتج العراق ، كما أن التفكير الفلسفي لم يزدهر عندنا بقدر ما ازدهر في الأقطار الشرقية من العالم الإسلامي . حقاً إننا أسهمنا بقدر ذي شأن في نمو علوم اللغة والدين ، ولكننا لم نخرج إلى الوجود ذلك النوع من الآراء الذي تقوم عليه المدارس والمذاهب . وقد ينطبق هذا القول على فن العمارة ، فإنتاجنا جيد إلا أن الأسس تصلنا من الخارج . أما الوجه الثاني المميز لثقافتنا الإسلامية فهو بقاؤها على الزمن واستدامتها أطول مما دامت في البلدان الإسلامية الأخرى . أضف إلى ذلك أنها لم تتلق ضربات قاصمة ، أو تصب

بنكبات كالتى حلت بإخوان لنا فى الدين ، فمن ذلك أن مصر لم يصبها شىء يمكن أن يقارن بما حل بالمغرب على أيدى القبائل البدوية ، أو بما لقيه الإسلام فى إسبانيا من إبادة وإفناء ، أو بما حل بالشام والعراق وما يجاوره من تدمير وخراب على أيدى المغول .

ولم يبدأ صرح حياتنا الثقافية فى الاهتزاز والتخلخل إلا عند ما دق الغرب على بابنا فى نهاية القرن الثامن عشر بحملة جيش من الغزاة الفرنسيين ، وسوف أتناول شرح ذلك فى حديثى التالى عن « مصر والغرب » .

مصر والغرب

هذا آخر حديث فى سلسلة أحاديثى ، وهو يتناول تطور المجتمع المصرى فى السنوات المائة والخمسين الأخيرة . وهى فترة توثقت صلات البلاد خلالها بالغرب . وقبل أن أبين لكم الحقائق الكبرى لهذا الاتصال — كما أراها — أود أن ألفت أنظاركم إلى بعض الاتجاهات التى تسترعى النظر ، ولا سبيل إلى إغفالها عند بحث هذا الموضوع . وأولى تلك الاتجاهات هى أن المؤلفين فى هذا الموضوع يكتبون ، كما لو أن الشعب المصرىّ يتعين عليه أن يختار موقفاً حاسما يلتزمه دون رجعة . وعلى أساس هذا الافتراض يشرع من نصبوا أنفسهم ناصحين لنا فى الإفضاء إلينا بما يجب علينا اتباعه ، فمنهم من يشير بأن نسير على نهج الحضارة الغربية فى صميمها ، أو فى بهرجها ، ومنهم من يعاوده الحنين إلى عصر رمسيس الثانى ، أو إلى عصر هارون الرشيد . أو إلى تقشف صدر الإسلام ، أو إلى الجمع والخلط بين محاسن ما يمكن أن نلتقطه كافة من هنا أو من هناك .

ولا حاجة بى إلى أن أبين فساد هذا الافتراض ، حقيقة أنه

قد تحدث ظروف فى تاريخ الجماعات يتعين فيها اتخاذ قرارات حاسمة ، ولكن لم يحدث أبداً أن طرأ موقف كان لزاماً فيه الانحياز إلى رأى نهائى ، أو موقف محدد المعالم لا رجعة فيه . فالجماعات فى تطور دائم ، وكل ما فى الأمر أن سرعة التطور تزيد فى بعض الأحايين عنها فى بعضها الآخر .

والاتجاه الثانى الذى يميل إليه بعض المؤلفين هو الاعتقاد فى أن ما يعترى مجتمعنا من أزمات ظاهرة خاصة بنا ، والصواب أن الشعوب الأخرى تشترك معنا فى هذه الحال ، ومنهم الغربيون أنفسهم . اختر أية مشكلة أو أية مسألة يختلف عليها الناس : مشكلة السكان ، أو الأسرة أو الطبقات أو مدى تدخل الدولة ، أو مسائل التصنيع ، أو الاقتصاد الزراعى ، أو المسائل المتعلقة بالديموقراطية بنوعيها الشعبى والبرلمانى ، أو تجريد الدولة من الصبغة الدينية ، أو السيادة القومية المطلقة والنظام الدولى . ليس فى هذه المسائل ماهو خاص بمصر أو بالغرب أو الشرق . فكلهامسائل نابتة من صميم العصر الذى نعيش فيه . وكل ما هنالك أن هذه المسائل ومثيلاتها تتخذ أوضاعاً مختلفة فى مختلف المجتمعات ، كما أن من هذه المشكلات ما قد يكون أكثر ضغطاً وأشد إلحاحاً

فى بعض المجتمعات عنه فى بعضها الآخر .

وفى المقام الثالث ميل الكتاب إلى أن يضعوا مصر مواجهة لمجتمع غربى ثابت . والواقع أنه قد طرأ على الغرب من التحول خلال المائة والخمسين سنة الماضية ما هو أبعد مدى مما انتاب مصر خلال تلك الفترة . ومن رأيى أن توهمهم وجود غرب ثابت لا يتحول أو يتحرك ، أو على الأقل فيما يختص بعلاقته بنا ، يرجع إلى سببين :

أولهما : أن السياسة التى تسير عليها الدول الأوروبية نحونا بالفعل لم تكن عادة مما يتجاوب تجاوباً ناجزاً وما كان يحدث فى أوروبا من تطور اجتماعى . لا ، بل بلغ الأمر أن كانت تلك السياسة تتعارض فى بعض الأحايين تعارضاً بيناً ومبادئ العلاقات الاجتماعية السائدة فى أوروبا .

وثانى السببين : هو أن الأثر الذى تتركه فترة من فترات الاتصال بأوروبا فى أذهان قومنا قد يبقى طويلا بعد أن تطوى حوادث تلك الفترة فى سجل النسيان . وأتخيل ، على سبيل المثال ، أن مرور الفرنسيين من جند ومدنيين — خلال احتلالهم لبلادنا عند نهاية القرن الثامن عشر — فى مدننا وريفنا أثر فى آراء المصريين كافة ، لجيل أو لجيلين ، عن الفرنسيين ، لا بل عن

الفرنجة أو الأوروبيين كافة .

وقد كان هؤلاء الفرنسيون أول الغربيين الذين اتصلنا بهم فى العصور الحديثة . وقصة غزوهم مصر ، إذا نظرنا إليها من الناحية الضيقة المحدودة ، لا تعدو أن تكون فصلا من فصول المنازعات والمنافسات التى شبت فى عصر الثورة ، وبخاصة المنافسة بين انجلترا وفرنسا ، ولكن إذا نظرنا إلى الأمر من ناحية أكثر عمقاً وأبعد مدى ، رأينا أن الحملة الفرنسية كانت نتيجة لثلاث ثورات أوروبية : الثورة العلمية ، والثورة الصناعية ، والثورة الفرنسية . فالثورة العلمية بعثت نظراً جديداً فى عالم الطبيعة والمجتمع الإنسانى ، والثورة الاقتصادية بعثت دوافع جديدة لوضع موارد الأرض كلها تحت تصرف الرجل الأوروبى ، والثورة الفرنسية بعثت إدراكاً جديداً لمبادئ التنظيم القومى. كانت هذه الأشياء العوامل التى فتحت عهداً جديداً فى تاريخ التوسع الغربى . فكان لا بد للأوروبيين من أن يملكوا أوطان الجماعات الإسلامية والآسيوية أو أن يسيطروا عليها ، أو أن يوجهوها ليبعثوها من جديد فتولى وجهها نحو الغرب وتسير فى فلكه ، وتصبح بذلك شيئاً نافعاً للغرب .

ومعنى نفعها للغرب عند الغرب أنها عندئذ تنفع نفسها أيضاً وتنفع العالم بأسره . بيد أن اندماج تلك الشعوب في الغرب اندماجاً كاملا لم يكن مستحباً لسببين ، إذ أنه يمكن أن يعتبر مناقضاً للمواثيق التي تعهد بها القوم أن يحترموا عقائد المصريين الدينية وعاداتهم ، وثانياً: أنه لم يكن هناك سبيل إلى تحقيقه . وحتى لوكان ذلك ميسراً لما كان في جانب مصلحة الحكام الأوروبيين أو المحكومين .

وكان الاحتلال الفرنسي قصير الأمد بيد أن نتائجه وعواقبه كانت بعيدة الأثر في التاريخ ، إذ كان هذا الاحتلال حافزاً لولاة مصر في البدء على عملية عمارة وإنشاء بوسائلهم وطرائقهم الخاصة .

وقد تشكلت تلك الطرائق وفقاً لآراء الحكام الشخصية في السياسة والاجتماع ومثلهم العليا ، ووفقاً لطبيعة الظروف المحلية ، مادية كانت أو أدبية ، فضلا عن تأثير القيود المفروضة على سلطتهم الفعلية . وهذه القيود فرضتها السيادة العثمانية ومصالح الأوروبيين وما كان يجرى بينهم من منافسات . ولذا كان الإنشاء واسع النطاق ومحدوداً في آن واحد ، كان يتسم بالفخامة والضعة معاً ، وكان أن أورثنا ذلك العهد من

تاريخنا مبادئ استقرت أساساً لكياننا القومي، أوردها فيما يأتي :

أن مصر هي القلب النابض لمجال حيوي يمتد إلى ما وراء حدودها ، أن التجديد شعار المجتمع ، أن الموارد تعبأ ، وأن المجتمع يخضع لسلطان موحد .

ولكن كان ينبغي لكي تؤتي هذه المبادئ ثمرتها أن يعامل الفرد المعاملة الخليقة بالمواطن ، فإن إخضاع الشعب لسلطة عليا لا تخضع لسلطان القانون كان معناه إخضاعه لقوة غشوم مدمرة توجهها الأهواء ، كما أن تعبئة موارد البلاد دون وازع من الإنصاف أو التقدير للاعتبارات الإنسانية لم يؤد إلى ثراء الأمة ورخائها ، بل أدى إلى تقوية شهوة القلة الوطنية والأجنبية المستغلة ، وإشباع نهم طائفة لا قلب لها ولا ضمير ، كما أن سطحية نظام التعليم واتجاهه نحو أهداف نفعية ضيقة لم ينشئ فريقاً من « الصفوة الفاضلة » بل خلق أدوات إدارية فاسدة لا تحسن أداء ما عهد إليها به.

ويجب أن أضيف إلى ذلك القصور وتلك العيوب ، مشكلات الأزمات الدبلوماسية والمنافسات الدولية ومايصحبها من قلق واضطراب ، ومشكلات رأس المال الأجنبي

والمستوطنين من الأجانب ، الساعين إلى شق طريق الرزق فى البلاد .

لقد انهار النظام الخديوى فى العقود الأخيرة من القرن الغابر ، ومن ثم سارت سفينة الدولة على غير هدى وفى مهاب الريح حتى ارتطمت بالصخور . ونجحت دولة أوروبية فى فرض سيطرتها وجمع أزمة الأمور فى يديها ، هى انجلترا .

ولو كان لسياسة الاحتلال البريطانى فى مصر أن تتخذ لها شعاراً لقدمت لها جملة طالما تكررت فى كتابات كرومر ، ألا وهى : « بقدر معلوم » . فيجب أن يكون لنا نصيب من كل شىء بقدر معلوم ، نصيب من الاستقلال ، ومن الولاية العثمانية ومن الصلة ببريطانية ، ونصيب فى السودان ، ونصيب من الحكم الشخصى ، ومن أنظمة الحكم الذاتى ، ونصيب من الرقى الثقافى والاقتصادى وهلم جراً .

ولم يكن الهدف الرئيسى الذى وضعه كرومر نصب عينيه أن يجعل مصر للمصريين ، وقال إنه لم يكن واثقاً مما يعنى ذلك ، بل مصر لسكانها كافة . ومن الجلى أن مصراً من هذا النوع لا بد لها من وجود قوة تقوم بدور الوساطة فى النزاع المحتوم بين الأجناس والمصالح ، أى تقوم فى الواقع بدور الرجل

القوىّ الفيصل الذى شهدته مدن القرون الوسطى المضطربة ، وبالطبع لا بد أن تكون تلك القوة هى إنجلترا .

بيد أنه غاب عن بال كرومر تماماً أن التسوية النهائية لأمر مصر ستكون مع شعب مصر . وهذا هو المعنى الذى انطوت عليه ثورة عام ١٩١٩ . بيد أن الآمال التى ولدتها ثورة ١٩١٩ فى بعث قومى جديد لم تتحقق ، فلم تكن لدينا شجاعة الإيمان بما كنا ننادى به ونجهر ، فمنحنا الشعب كلاماً ، وكنا أنانيين ، وكانت المعاذير التى كنا نتذرع بها لإخفاقنا أقل مما كان يلتمسه آباؤنا عام ١٨٨٢ لأننا شيدنا على ما تركوه وراءهم ، وكان فى وسعنا أن نتعلم من أخطائهم . ولكن مع ذلك لا ينبغى أن نغفل عما واجهنا من صعاب ، فقد كنا نسعى جهدنا فى آن واحد وقد حاولنا القيام بذلك ، بينما كنا نخشى أن تمتدّ إلى شعبنا الدعوات الأوروبية الجديدة القائمة فى الروسيا وإيطاليا وألمانيا ، فترددنا فى تعبئة مواردنا الحية والمعنوية . وترتب على ذلك أن حذونا حذو كرومر ، أى أننا حاولنا الحصول على شىء من كل شىء بقدر معلوم . شىء من المحافظة على التقاليد مع مسايرة روح العصر ، وقدر من الرأسمالية ، وقدر من

الاشتراكية على السواء ، وقدر من الزهو والتظاهر ، مع مقدار من عدم الاعتداد بالنفس .

وقد شهدنا كما شهد آباؤنا « انهيار الحكم » مع هذا الفارق ، وهو أن انهيار ١٨٨٢ أعقبه الاحتلال البريطانى ، بينما الانهيار الذى حدث فى زماننا خلف لنا مولد الجمهورية المصرية . وإن بمجرد الاسم فى ذاته ليحمل فى طياته برنامجاً كاملا للإنشاء على أساس المبدأ القائل : بأن أكبر مقدار من السعادة يجب أن يحقق لأكبر عدد من الأهلين . وإن خير تعريف تتخذه الجمهورية المصرية لنفسها فى العصر الذى نعيش فيه لهو ماقاله الفيلسوف « برك » :

« لا يجب اعتبار الدولة شيئاً أفضل من كونها اتفاقاً على المشاركة فى المنافع ، بل هى مشاركة فى العلوم كافة ، ومشاركة فى الفنون كافة ، ومشاركة فى الفضائل كافة ، وفى الكمال كله » .

هذا الكتاب الصغير في حجمه العظيم في معناه يستحق إعادة القراءة والدراسة، فإذا كان المرحوم «جمال حمدان» قد ترك لنا عمله الخالد (شخصية مصر) فإن المؤرخ العظيم محمد شفيق غربال قد سبقه إلى ذلك حينما وضع يده بدقة على مفاتيح الشخصية المصرية، سواء من حيث المنهج الذي استخدمه أو من حيث الموضوعات التي تناولها في هذا الكتاب والتي تبدو فى ظاهرها أنها موضوعات مستقلة عن بعضها، لكن القراءة الواعية تؤكد أن الكتاب فى مجمله يعد موضوعًا واحدًا رغم تنوع العناوين الرئيسية.

ويعد كتاب (تكوين مصر) نموذجًا للكتابة العلمية الرصينة، فضلاً عن الرسالة العلمية والوطنية التي يقولها الكتاب من بدايته إلى نهايته فخارًا ومجدًا لوطن كان كبيرًا وسيظل..

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة